قصص

خوليا أوتشوا

مشهد عائلي مع شبح

ترجمة:
سعيد بنعبد الواحد

Telegram:@mbooks90

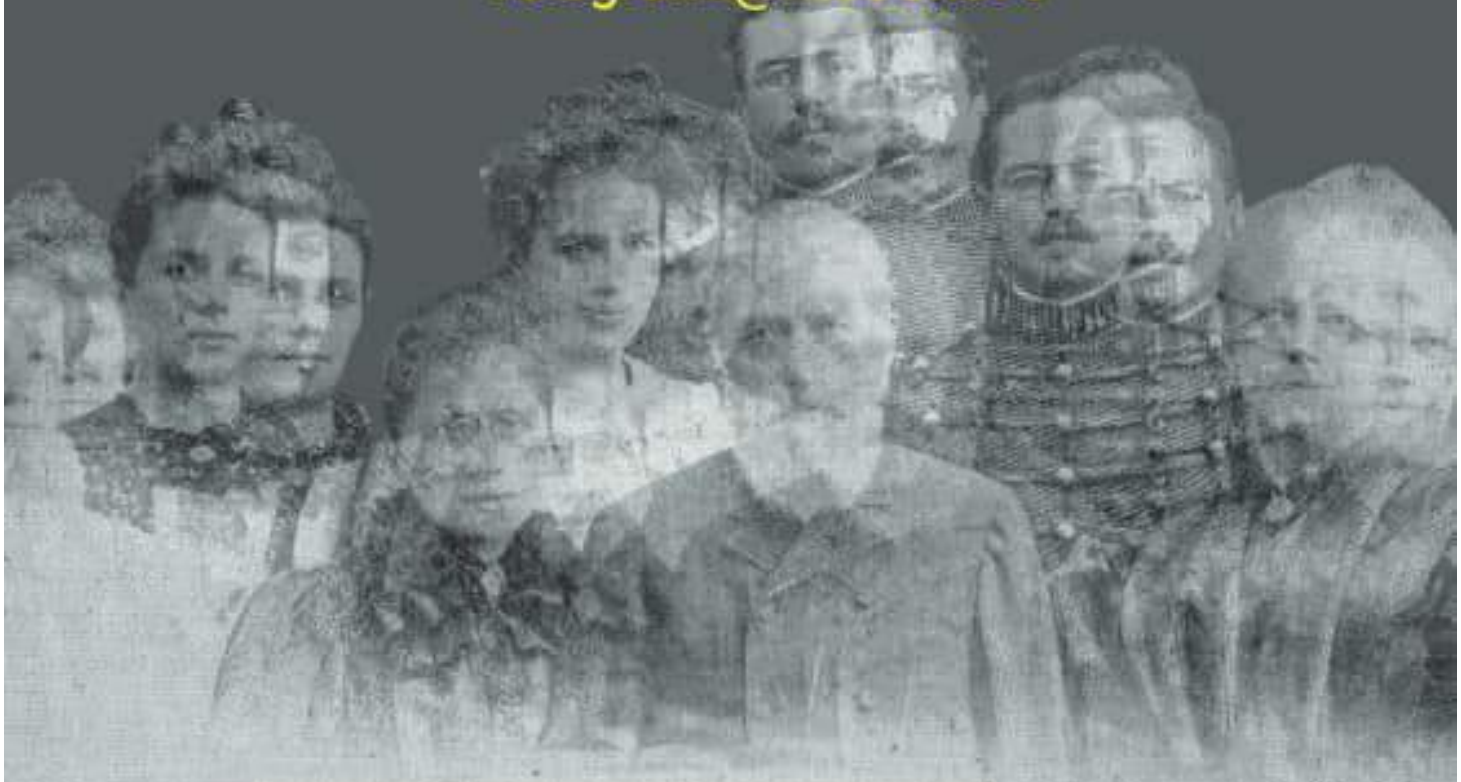

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقديم

أنخليس إثينار

(جامعة سان لوي الأمريكية في مدريد)

سوف تُشكِّلُ هذه الدفعةُ الجديدة من قصص خوليا أوتشوا مصدر سعادة للقراء الذين واكبوا أعمالها منذ البداية، أما من يقرؤونها لأول مرة فستكون سببًا لدهشتهم، وهم يجدون سردًا أصيلًا يتعمق في المواضيع الكونية من وجهة نظر سريالية وعبثية: تفكيرٌ في القضايا الراهنة والمتعلقة بشكل دقيق حول الكائن البشري والعالم المحيط به. فالنظرةُ الحائرة التي تقدمها الكاتبة عن المجتمع الذي نعيش فيه تتحوّلُ في هذه الحكايات إلى أداة قوية، ذات جودة أدبية استثنائية، وتقدمه للقارئ الذي تجذبه فورًا بسبب نسيجها الخيالي والواقعي.

Telegram:@mbooks90

تتشكّلُ مجموعة مشهد عائلي مع شبح من ٥٠ قصة قصيرة وقصيرة جدًا، تعجُّ بمواضيع مختلفة تشمل اللغة -وسائلَ التواصل أو عدم التواصل- الفساد السياسي المستشري في أيامنا هذه، الهاجس القومي، النزعة الاستهلاكية الشائعة، الفنّ التجريبي، العنف، الكتابة، وانتهاءً بالطرق التي يسلكها البحث، مثلًا. وتتناول الكاتبة كلّ هذه المواضيع بواسطة أدوات سردية تميز كلّ أعمالها: الفكاهة، السخرية والعبث، الذي يتحوّل أحيانًا إلى نوبات ومواقف غريبة ومضحكة. وتستعمل القاصّةُ هذه الأدوات بمهارة عالية لدرجة أنها تخلق المسافة الضرورية، الضحكة العفويّة، لتدفع في لحظة لاحقة إلى تفكير عميق.

ليس من قبيل الصدفة أن يتصدر عنوانان مثل "Bibliotheke" و"مصباح سويسري" هذه المجموعة القصصية. فمنذ الصفحات الأولى تضع خوليا أوتشوا نصب عينيها بعض المواضيع ذات الطابع الآني المطلق. أوّلًا، تقديس ثقافة الطعام السائد في المجتمع الحالي (الباسكي، الإسباني، والعالمي)، هذه الثقافة المطبخيّة المتجذرة كثيرًا في العالم المعاصر، والتي شكلت بطريقة ما تحوُّلًا في القيم: عوّض فنُّ الطبخ هواية القراءة، والرُّفوف التي كانت تشغلها الكُتبُ فيما مضى صارت اليوم معبدا

للحم والنقانق، كما توحي بذلك قصة "Bibliotheke". ثانيا، هناك إشارة واضحة إلى ما تتعرض له اللغة من تطهير، والنتيجة أنه في إطار وضع التخلي عنها صارت فارغة من محتواها وأصبحت سببًا في عدم التواصل. وتُرسّخ هذه القصص الأولى النبرةَ الفكاهية الساخرة السائدة في المجموعة بكاملها، وحسب القصد المرغوب فيه تتخذ هذه النبرة أبعادًا غروتسكية، حُلمية، تعبيرية أو موحية بالقبيح والبشع.

إن السياسة وممارستها المتساهلة والانتهازية كانت مصدر إلهام لأكثر من حكاية من هذه الحكايات. ولا بد أن نبرز أن جنس القصّة القصيرة جدًا، الذي تعتبر الكاتبة الباسكية واحدة من أهم ممثليه، يتوافقُ تمامًا مع هذه الحكايات حيث القِصَرُ والإيجاز والتعبير الدقيق عناصرُ تسمحُ بخلق معنىً شامل. هكذا، فإن قصصًا مثل "منظرٌ يليقُ بالفراك"، "قَسَمٌ"، أو "الجنديُّ القناص" تُشكِّلُ منمنمات رائعة تكشف عن عملية التحوُّل التي يعيشها الأفراد، الذين تسمح لهم قدرتهم على تغيير شكلهم وأفكارهم بأن يتحولوا من مجرمين إلى رجال دولة. لكن، في بعض الحالات، تُفضِّل الكاتبة التشديد على تقبل بعض التصرفات التي تنتهي بالحصول على موافقة عامة، سواءٌ كان ذلك وشاية ("الاعتراف") أو إعدامًا ("شرفات مزينة")؛ أي أن فرض الرعب كشكل من أشكال الحفاظ على السلطة المحتكرة يأتي في الصدارة، لكنّ تناولَهُ يكون من زاوية الغروتيسك.

هناك أيضًا نصوص مشبعة بنبرة فكاهية ساخرة، مثل القصص التي تعكس الحرص القومي والإثني الحاضر بقوة في بعض البلدان وفي بعض الجهات المستقلة في إسبانيا. إن الانتقال من تفخيم الكلام والرموز إلى العبث الكاريكاتوري يتم دون مرحلة انتقالية ويبرز غرابة وتشدد الأفراد، المجموعات أو الحكومات. هناك أمثلة رائعة على هذا الأمر مثل قصة "يومُ أحدٍ في ساحة الأبطال"، حيث راية وطنية ضخمة تلعب دور البالون؛ "القائمة الوطنية" حيث يبدو أنّ المدّ القومي يختفي لسبب يسير يتمثل في استثناء جزء من الغطاء النباتي والكائنات الحيوانية من القائمة الوطنية للأنواع الأصلية؛ "مراحيض الكاتدرائية"، التي تكشف عن طابعها التدنيسي من العنوان، وتشير إلى الاستغلال الإثني لحالات جنونية.

كما يندرج في نموذج العبث عدد مهم من القصص التي تُبرز تصرفات لا عقلانية في مجالات متعددة. يُلاحظ ذلك من خلال ممارسة تجميل الحيوان التي تبلغ حدودًا مبالغًا فيها، أو هيمنة موضة الاستعمال لمرة واحدة. بل حتى الأشخاص باتوا يشكّلون جزءًا من دائرة ما يمكن الاستغناء عنه. أو النزعة المينيمالية التي بلغت درجات غريبة في مجتمعنا الاستهلاكي، التي يتم تقليدها تقليدًا ساخرًا في حكاية أخرى تبرز وجهها التجاري الضيق، إذ يتحوّل القمرُ إلى شيء قابل للاستهلاك. فالتهكّم والسخرية هما الأداتان المستعملتان بمهارة في هذه المقاربات لعالمنا رغم اختلافها وسهولة التعرف عليهما، بفضل الجمالية السريالية المهيمنة على هذا الكون السردي. وفي هذا السياق، تعتبر قصة "القُطبيّة" قصة رائعة تبرز انطلاقًا من الجنس الفانتاستيكي المفارقات التي تميز كثيرًا من تصرفات الإنسان. وعلى طريقة الكتاب الأوروبيين الكبار -ستريندبرغ، كافكا، بيكيت- تستعملُ خوليا أوتشوا العبث لمقاربة واقع حياتنا الحالية وتقدم شهادة عن الاغتراب الثقافي، الوجودي والسياسي المستجد في صيرورةِ اليومي.

ويُشكّلُ البناءُ الدرامي القالب المثالي للتهكُّم من بعض النزعات المفرطة فيما يسمى الفنَ التجريبي بمختلف تعابيره. في قصص "بحثٌ سماوي"، "المترجمُ والسلحفاة" و "مسرح في مانهاتن" يخضع عالم المسرح إلى هذا التأمّل الباطني من أجل إبراز الغياب التام للمعنى في بعض العروض، والنتيجة المنطقية لذلك هي انعدام مطلق للفهم من لدن الجمهور، بل و حتى الممثلين. كما يحدث الأمر نفسه عند مقاربة فنون أخرى من وجهة نظر غروتيسكيّة. إن هذا التحوُّل الفني، هذا الانتقال المثير من السردي إلى المرئي، يتجلّى بشكل فريد في قصة "يوم أحد في ساحة الأبطال".

من جهة أخرى، يلعب القارئ دورًا نشيطًا في عدة قصص. إن موضوع الهوّيّة، الحاضر في أعمال الكاتبة، يُعالَجُ أحيانًا بتواطؤ مع القارئ الضُمني الذي يُقحَمُ كي يقوم، بشكل شخصي، بإتمام القصّة التي بدأت: يمكن أن يطلق العنان لخياله، يختار بين عدة خيارات مقترحة، أو يقوم بالتداعيات المقترحة أو ربّما تلك التي يحدسها بنفسه. إن روح اللعب جزء لا يتجزأ من العديد من هذه القصص التي تندرج في إطار

ما يتعلق بالحلم، وتبحث في الهوة بين النظرية والتطبيق في كثير من التصرفات الإنسانية، في التوق إلى الغيرية، في الشكوك الشخصية وفي الخنوع.

كما تطرح هذه المجموعة موضوعي الإحالة الذاتية والكتابة من وجهة نظر جديدة. في هذا السياق، تجدر الإشارة إلى القصة التي تحمل عنوان "كتابة"، والتي يُختتم بها الكتاب. تُقارِن مهنة الكاتب بمهنة المسافر الذي لا يتوقف عن السفر، بالفرد القادر على اكتشاف مناظر وتجارب جديدة، العازم على مواجهة لغات مختلفة أو أشكال جديدة من التعبير. هذا الموقف الترحالي الفعليّ عنه يمكن أن يُرصد في التجربة الخاصة للكاتبة خوليا أوتشوا، التي أكدت في مناسبات عديدة موقفها المتواصل من البحث والانفتاح.

إن هذه المجموعة الفريدة من القصص القصيرة والقصيرة جدًا للكاتبة خوليا أوتشوا، تُشكِّل مجموعةً من مناظر عالمنا الحالي يمكن التعرف عليها، وهي أيضًا بعيدةٌ بما يكفي بفضل الجمالية السريالية والعبث المعتمد، الذي يميّز العالم السردي للكاتبة. فالفكاهة والسخرية تضعان لمسات لامعة وجذابة، اللون الضروري، على هذه الصور التي تريد الكاتبة أن تجعلنا ننغمس فيها: مناظر مسرَّجة، إنْ حاكينا واحدًا من عناوينها، مزينة ليس بمحاسنَ، بل بديكور قبيح وتسمح بإظهار حقائق، لكن، طبعًا، انطلاقًا من الفضاء الوافر والثري للإبداع الخلّاق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشهد عائلي مع شبح

إلى ريكازدو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Bibliotheke

فوق الرُفوف التي كانت تشغلُها الكتُب فيما مضى، وُضِعت الآن الأضلاع ومواضعُها، مشاكيك من الشجق، قطعُ شحمِ الخنزير الكبيرة ذات اللون الوردي، دمُ الخنزير، صدورُ الدجاج الذهبية، سيقانُ الخروف، الأرانبُ، آذانُ الخنازير وأنوفها، أحشاءُ العجل، كلى الخروف، كبدُ الثور...

كما تُعرضُ في القاعة الكبيرة المخصّصة للكتب الكلاسيكيّة اللُحوم المجفّفة في كلّ بهائها: الشجُق المحشوّة المُتبلةُ والحلوة، الشجُق المجفّفة، المورتاديلا، الشجُق الكتلانية، لحومُ الخنزير، الشجق الصغيرة والكبيرة، الأحشاءُ واللحمُ المملّحُ المحشوّ. كلّ أنواع الفضلات واللّحم المُملّح التي تُبهرُ بمُجرّدِ رؤيتها أُمناءَ المكتبة، لدرجة أنها تؤثر تأثيرًا خطيرًا على وعيهم، فتتركهم من دون جاذبية يرتفعون في الهواء بلُطف فوق زمن موسم الذّبح. آه! عن تلك الأيام من الكرشة والأحشاء، حيث يبرزُ أصحاب السّكاكين، والجزارون، والأمَيون المرحون، والأقوياءُ مثل حوافر البقر، أساتذةُ الذّبح والتّقطيع!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مصباح سويسري

كلَّ صباح، يشتغل السيد الغامض على تشريح اللغة فوق مائدة المطبخ الخشبية، تحت الضوء القويّ للمصباح السويسريّ. عاريًا، بشعره الممشوط وجسمه المعطر، يعطي جزءًا كبيرا من جسده الناصع البياض بمريلته المعتادة ذات اللون الأزرق اللازورديّ، يضعُ يديه في قُفّازين مطاطين يصلان حدّ ذراعيه، مسلّحًا بسكاكين، بشريط قياس وميزان، يضعُ في متناول يده اليمنى الصحن مع أدوات التشريح: مبضعٌ، ملاقطُ، مقصٌ... يبدأ طقسَهُ اليومي من التحوّل، فيشقّ من أعلى إلى أسفل فقراتٍ وجُملًا، يزيلُ بدقة متناهية عظام الأسماء، والأفعال والنعوت، يستنزف دماء القنوات العميقة لمعانيها، حتى يترك المعاني فارغةً شاحبةً مثل منظرٍ غروقٍ بعد مرورِ مضاصِ دماء. بعد ذلك، يأتي وقتُ نحت كلّ وحدة صوتيّة بالمبرد، ثم ينظّفُها ويصقلُها، بنفس العناية والانضباط اللذين يُزيّنُ بهما الميّتُ.

حينئذ، وقد صارت كتلةً تافهةً عزلاء، من سلالة مستودع الأموات، يمكنُ للكلمات أن تُجزّأ حسب الذوق، فتتّحدُ أقسامُها الدقيقة بعد ذلك بأقسام أخرى مجهولة لتُبرزَ بذلك أصواتٌ مُحيّرةٌ، غريبةٌ، لا يفهمُها أحد لكنها تزيّن من ينطقُ بها وتمنحُه ما يشبه هالةً من الغموض والحكمة.

المترجم

كما يحدثُ كلَّ ظهيرة، دخل روبيرتو غاذا إلى مكتبه مستعدًا للقراءة بضع ساعات قبل أن يشرع في ترجمة الديوان الشعري الذي يشتغل عليه. هكذا، جلس أمام المكتبة، وبينما كان يرتشف فنجان القهوة، فكّر أنْ أيّ كتاب من الكتب الكثيرة التي لم يقرأها بعد قد يكون مناسبًا للظرف، علمًا أنه في الآونة الأخيرة لم يعد يملك سوى قليل من الوقت للقراءة، لأن الناشر يضغط عليه بترجمة ديوان الشاعر الصيني ل. يانغ، بالإضافة إلى طلبات أخرى ما تزال في لائحة الانتظار.

لم تكن مهمة اختيار ما يقرأ بالأمر اليسير تمامًا. فأمام روبيرتو غاذا كان يرتسم بكل وضوح كتابان مختلفان: "الإنسان المتمرد"، لألبير كامو، و"حياة الحشرات"، لهنري بويلان. وكلا الطريقين كانا رغبتين قويّتين تجذبانه لأسباب مختلفة.

هكذا، نهض، أخذ الكتابين من المكتبة، وضعهما فوق الطاولة، جلس من جديد وصبّ جرعةَ شايٍ أخرى. تأمّلَ المُجلّدين المتساويين في الحجم، ثم ذهبت نظراتُه لتتيه في كسلٍ عبر الألوان الصفراء التي يرسمها شهر سبتمبر على أشجار البتولا في الحديقة؛ فهناك، بين أوراقها المشتعلة، فكّرَ أنه من الممكن الاعترافُ أنّه هو، ذلك الرجل الواثق والراسخ فيما مضى، بدأ يصير كائنًا في منتهى التردّد والهشاشة. تلك الفكرةُ التي ربّما كانت ستثير قلقه فيما مضى، أصبحت اليوم تلفُّه في خنوعٍ جميل. ثم نام وهو غارق في تلك الأفكار.

حين استيقظ، كان ظلامُ الليل يلُفّ الإقامة بكاملها. تأمّل مرة أخرى الكتابين قرب فنجان الشاي، وهي تشكل قطعة فنية حميمية. غارقًا في تلك الراحة العذبة التي تلي قيلولةً هادئة، فكّرَ أنها لحظة رائعة ليشعل واحدة من تلك السجائر التركية التي كانت لويز قد أرسلتها إليه من بودابيست.

نظر إلى ساعته اليدويّة، ورأى أنه مازال أمامه نصف ساعة قبل الشروع في الترجمة، لذلك أخذ الأمور بهدوء، أشعل سيجارة، ولاحظ بدقّة تجليد الكتابين. كانا تجليدين مختلفين تمامًا: الأول برتقالي، والآخر أبيض وبُنّي؛ ومن المحتمل أن يكون

هذان الكتابان قد طبعا في سنتين مختلفتين، أو ربّما تكونان طبعتين لاحقتين بعد طبعات أخرى قديمة... ذلك التراخي، ذلك الشرود الذهني من دون أي موضوع يعجبه، ذلك الانسياب من دون وزن للزمن بعيدًا عن أي حالة من حالات القلق، كان يجعله يسترخي بشكل عميق.

استرخى كثيرًا، حتى إنه عاد لينام عميقًا مرة أخرى. حين استيقظ، كان الليل قد تقدّم كثيرًا؛ وعبر النوافذ الزجاجية، ذكّرتهُ أضواءُ المدينة أن الوقت قد فات كي يجلس ليترجم. نظر مرةً أخرى إلى ساعته، الثامنة مساءً؛ كلّا، تلك لم تكن ساعةً ليبدأ فيها يومهُ مترجمًا. وعين العقل أن يقوم بجولة قصيرة في الحديقة، يتسلّى قليلًا، يتناول العشاء ويقرأ قبل النوم بضع صفحات من الكتابين الموضوعين قرب فنجان الشاي فوق طاولة مكتبه.

لكن في تلك الليلة أيضًا لم يتمكن من القراءة قبل أن ينام، وظلّ، كما في مرات سابقة كثيرة، مستندًا إلى الوسادة، يحدّقُ في سقف الغرفة، يتخيّلُ محتوى ذينك الكتابين اللذين يبدوان خياليّين جدًا في ذهنه، الذي اعتاد على التسكّع وسط أفكارٍ مجرّدة وأوهامٍ. وبذلك أبعَدَ إمكانية اختيار واحدٍ منهما واستبعادِ الآخر. فأي اختيار كان سيعني خيانة حقيقية.

ظلّ يفكر في هذا كله حتى نام. في اليوم التالي، نهض باكرًا، تناول الفطور وجلس فورًا إلى مكتبه مستعدًا للعمل طيلة الصبيحة في ترجمة الديوان الشعري.

قبل الشروع في الكتابة، ترك نفسه يهيمُ للحظاتٍ وهو ينظر إلى قمم الأشجار التي يهدهدها النسيمُ بلطف. فكّرَ في الجمالِ التامّ لتلك اللحظة. في الحقيقة، كان صباحًا جميلًا ليشرع في العمل، لكن، بينما كانت نظراته تعود ببطء نحو الديوان الشعري، وقعت عيناهُ على نسيج عنكبوت كان قد تشكّل عند زاوية النافذة؛ كان الضوء الصافي لذلك النهار الخريفي يمتدُّ فوق ذلك الشكل الهندسي من الخيوط الفضية ويرسمُ الأعجوبة.

"يا له من جمالٍ"، فكّرَ، واقترب ليُلاحظها. طالما أثارت إعجابَهُ تلك التركيبة المعقدة من الحرير، الأجزاءُ المتناسقة لأشعتها، خطوطها المائلة، تلك المرونة

المدهشة التي تتهدهد بها وسط أشد الرياح العاتية. تحفةٌ هندسية رائعة تشكل فخًا مميتًا للحشرات الصغيرة.

ذلك الخيط الحريري الذي تنتجه العناكب ويتبلور في اتصاله بالهواء كان أكثر مرونة ومقاومة من الحديد، حسب العلماء. كان روبيرتو غاذا يفكّر في كلّ هذا وهو يُقرّبُ عينيه من زاوية النافذة، حيث كان بيت العنكبوت يهتزُّ بشكل خفيف. يا له من سرّ! من خلال النسيج الدقيق رأى لوسيان لافورغ يقترب عبر صفّ أشجار الزيزفون، يسير بخطى حثيثة مرتديًا ملابس رياضية مثل من اعتاد على المشي لمسافات طويلة في الصباح؛ رآهُ يعبر باب الحديقة ويقرع الباب. كان يعرف لوسيان منذ أكثر من ثلاثين عامًا، كانا قد درسا معًا في المدرسة وبعد ذلك في الجامعة، ومنذ ذلك الحين ظلاّ يلتقيان بوتيرة نسبية. انقطع لوسيان عن متابعة الدراسات الإنجليزية في السنة الثالثة، ليصبح مُروّض أسود في سيركٍ يجول عبر كلّ جغرافية البلاد. كان اسم السيرك هو "مينوهين العظيم" تكريمًا للساحر المعروف. كان لوسيان يقضي نصف السنة مسافرًا مع السيرك، ويقضي نصفها الثاني في كتابة، ما يسميه عملًا أساسيًا، في كلّ ما يرتبط باللغة التي تستعملُها الأسود في التواصل.

نزل روبيرتو غاذا ليفتح الباب.

- صباح الخير لوسيان!

- صباح الخير روبيرتو!

- يسعدني أن أراك بصحة جيّدة؛ ادخل، ادخل لنتناول قهوة حضّرتُها للتو.

ذهبا معًا إلى المكتب وجلسا قبالة النافذة. من هناك، كان روبيرتو يستطيع أن يواصل ملاحظة بيت العنكبوت وهو يتراقص بلطف وسط الضوء.

- لا أريد أن ألهيك عن عملك -قال لوسيان- جئتُ فقط لأذكرك أنه في يوم الخميس سيعقد الجمع السنوي لقدماء التلاميذ؛ وهذه المرة سيكون مكان لقائنا هو مطعم "الغاق الأبيض"، بما أن أشغال الإصلاح جارية في مطعم "واترلو".

- حسنًا. أجابه روبيرتو وهو ينهض ويُحضّر فنجاني قهوةٍ يتصاعدُ بخارها مع

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

صحن من الكعك باللوز، وضعه أمام لوسيان بعد أن أفسح له فجوة في المائدة التي تغص بالكتب.

- أرى أنك غارق في العمل. قال لوسيان بينما كان يأكل قطعة من تلك الكعكات.

- نعم، إنني غارق في ترجمة ديوان شعري للكتاب الصيني ل. يانغ. الترجمة تمتص كلّ وقتي، لأنها عمل يتطلب كثيرًا من الدقة، كثيرًا من التفاني والإيثار... على أيّ حال، ماذا أقول لك... ها أنت ترى كيف أعيش... محاطًا بملاحظات مدونة، كتب وملفات...

اغتنم روبيرتو اللحظة التي ارتشف فيها لوسيان جرعة من القهوة ليلاحظ مرة أخرى، خلال ثوانٍ قليلة، بيت العنكبوت. كان القيام بذلك يخلّصه من الواقع ويحمله إلى بعد آخر أكثر خفةً ولعبًا، ما يشبه مخبأً سرّيًا لا يعرفه إلا هو، ويستطيع أن يختبئ فيه متى شاء.

عندما وضع لوسيان الفنجان مرة أخرى فوق الطاولة، عاد روبيرتو إلى الواقع وسأل:

- أين قلتَ إنه يوجد هذا المطعم المسمى "الغاق الأبيض"؟ إنه ليس مألوفًا لديّ.

- الأمر يسير -قال لوسيان وهو يتناول الكعكة الثانية- تسيرُ بجانب ساحة "كونكورديا" وتخرج إلى الشاطئ. يوجد مطعم "الغاق الأبيض" عند نهاية الشارع البحري بالضبط. طبعًا، يمكنك أن تصل إليه عبر الجهة الداخلية وأنت تمشي في شارع "ريشال" الذي ينتهي عند الطريق المحفوف بأشجار الحور، ثم تصعد بعد ذلك عبر الأسوار حتى تصل إلى مقصورة الحديقة؛ من هناك ما عليك سوى أن تنزل المنحدر الذي يؤدي بك إلى رصيف الميناء، لكن إنْ شئت يمكنك أن...

من دون أن يعي، كان لوسيان يستعملُ نفس التقنية البلاغية التي لا تنتهي أبدًا، التي يستعملها في السيرك لتنويم الأسود. لذلك، بما أن روبيرتو لم تكن لديه أدنى رغبة ليخضع للتنويم من الضجر. أوقف ذلك في الحال، ثم شرد بنظراته في نقطة غير محددة من المكتب، وراح يتخيل مدينة تغصُ ببيوت عناكب من كلّ الأشكال

والأحجام. مدينة بنوافذ دقيقة من الحرير يمكن أن يتيه فيها المرء. أثناء ذلك، كانت تتناهى إلى سمعه تلك السلسلة الرتيبة من الجمل الطويلة التي يقولها لوسيان.

- بالصعود عبر شاع "بريم" ستصل أسرع من ذلك، طبعًا، لكن، بما أن هناك أشغالًا في شارع "بنثونيس"...

كان بوسع روبيرتو ولوسيان أن يظلاّ على ذلك الحال إلى الأبد، لولا أن صوتًا غير متوقع قاطعهما وأخرجهما لحظةً من أفكارهما. ذلك أن تشابيرون، قطّ روبيرتو الذي كان ينام هادئًا على الأرض قرب المكتبة، تضايق من ذلك الكلام المسهب الذي كان يقوله لوسيان، وراح يموء شاكيًا بالقرب منهما.

- تشابيرون، ما بك؟ داعبه روبيرتو وهو يقدم له شيئا من الكعكة. بعد أن هدأ القط، رجع إلى نفس المكان قرب المكتبة ونام من جديد.

- هذه القطط التيبتية من أذكى أنواع القطط. قال لوسيان وهو ينهض ويستعد ليغادر.

- عليك أن تخرج أكثر؛ إنك لا تغادر البيت تقريبًا منذ أكثر من ثلاثة أشهر. هذه السنة، لم تأت حتى لحصص السيرك. أضاف.

- آسفٌ لوسيان -قال روبيرتو حزينًا بعض الشيء- إن عمل الترجمة هذا أخذ يحولني إلى راهبٍ زاهد في الحياة.

- على ذكر العمل، لا أريد أن ألهيك أكثر من هذا. قال لوسيان وهو ينهض ويتوجه نحو الباب. آه، لقد نسيت! استدرك فجأة وهو يُخرج من جيب سرواله صورةً يبدو فيها مبتسمًا، يرتدي ملابس مروّض في أرض عراء وسط أسدين وسيارة حمراء من نوع "سيات ستمائة" في الخلفية.

- بما أنك لا تأتي إلى السيرك، فقد جلبت لك ذكرى: أخذت صورًا للأسدين كي أوزعها هناك وهناك. انظر، هذا الأسد على اليسار هو هوارد، وهذا الآخر هو نيوتن.

- شكرًا لوسيان. يا لهما من أسدين! إنهما رائعان! سأضع الصورة داخل إطار. وهذه

سيارتك؟

- كلا، كلا، كانت فقط هناك وأعجبتني، فأخذتها في الصورة. أجابه لوسيان.

رافقه إلى الباب، ثم عاد إلى المكتب. قبل أن يجلس ليكتب، جمع الفنجانين والصحن، ثم أخذ كلّ شيء إلى المطبخ. نظر إلى الساعة... "بحق الجحيم! كيف مرّ الوقت سريعًا!" فكّر. "منتصف النهار تقريبًا، ها قد ضاع مني الصباح!". عاد وجلس إلى مكتب عمله، نظر مرة أخرى إلى صورة الأسدين، لكنه تذكر الأجل الذي التزم به مع الناشر ليسلّمهُ الترجمةَ فانقبضت معدتُه؛ ثم سرعان ما استعاد عافيتهُ. انطلاقًا من هذه اللحظة، كلّ وقته، كلّ دقيقة منه، سيكون للكتاب؛ كان يشعر بالسعادة بعد زيارة لوسيان. فكّرَ في لقاء يوم الخميس في مطعم "الغاق الأبيض"، يتطلع للقاء زملائه القدامى مرة أخرى، رغم أنه كان يشعر في كثير من الأحيان أنه بعيد عنهم، كما لو أن جزءًا منه هو الذي يحضر تلك اللقاءات كلّ سنة. من المفارقة أنه، هو، المترجم، كان يتقاسم أمورًا قليلة معهم جميعًا، أساتذة، علماء لسانيات، بل وكُتّاب أيضًا... عندما يتحمسون وهم يتحدثون عن الأدب أو اللغة، كان يصغي إليهم شاردًا. طريقتهم في تصوُّر عالم الفكر والإبداع، كانت بعيدة كلّ البعد عن عالمِه الهوائي من التجريدات التي لا حدّ لها. لم تكن هناك نقاط التقاء. كان عالمهم جميعًا هو التحديد، التشريح، التيارات الجمالية المختلفة، السرد الزمني... المنطقُ، بوصفها طريقة لتقسيم عالم الفكر تقسيمًا رياضيًا. لم يكن يهمه أي شيء من هذا كله. في نظره، كان الأدب والكلمات شيئًا مختلفًا جدًا، أكثر حياة بشكل أكبر، نسبيًا وحاضرًا، قطعة من جسده. هو، عكسهم، كان يعيش في عالم من الرموز.

نظر إلى بيت العنكبوت في ركن النافذة، بعد أن أصبح الآن غارقًا في عتمةٍ هادئةٍ؛ لم تسقط فيه أيُّ حشرةٍ بعد. فرح لذلك، لأن معاينة الموت، ولو كانت موت حشرة دقيقة جدًا، كان يغرقه في حزنٍ عميق. فتح ديوان الشعر، فلامست عيناهُ للحظاتٍ عابرة الحروف الصينية... يا لجمال العلامات! تخيّل الريشة، المحبرة، كثافة الحبر، رأس الكاتب منحنيًا على الورق، الإقامة التي كان يكتب فيها ل. يانغ غارقًا في ضوءٍ خفيف كما في لوحات فيرمير.

قرّبَ الكتابَ من وجهه، استنشق بعمق رائحة المداد والورق. كيف كان ذلك الكاتب الصيني الذي عاش في القرن الخامس عشر؟ كان ذلك ديوانًا شعريًا جميلًا للشاعر ل. يانغ؛ يتحدث عن حديقته، عن الطيور التي ظلّ يلاحظها على امتداد السنوات، عن حياةِ مختلف أنواع الأشجار، عن الأصوات التي ينتزعها النسيم من أغصان أشجار البتولا، أشجار السنط، وأشجار الأيلانتوس. حسب الفصل، إن كان ربيعًا، صيفًا، شتاءً... عن الضوء المتغير في المناظر الطبيعية... عن الأزهار، عن البذور... عن الحشرات، عن الزواحف، عن الثدييات الصغيرة.

هل يمكن أن يوجد ظلٌّ ما في فكرِ ذلك الرجل بكل هذه القدرة على الملاحظة وإبداع الجمال؟ تساءل روبيرتو غادا. أكيد أنه كذلك؛ "وحدهُ من عانى بحدة يمكن أن يقرأ جمالَ الكون"، قال مع نفسه وهو ينهض حاملًا الكتاب في يده، ومتوجها نحو الأريكة قرب النافذة.

هناك، قرب المكتبة، فوق طاولة صغيرة، كان يستكين الكتابان اللذان ينتظران القراءة. وهو يلاحظهما من جديد، فكّر أنه ربّما تسعفه قراءة بعض الصفحات منهما على تجويد ترجمة تلك القصائد الدقيقة شبه المقدسة للشاعر ل. يانغ التي أثرت فيه أيّما تأثير. مثلًا، لو أخذ الكتاب الذي يتحدث عن حياة الحشرات، قد يستفيد منه بمعلومات حول دورة حياتها، عاداتها، مورفولوجيا أجسادها. وبفضل ذلك كله، من دون شك، يمكنه أن يترجم بمزيد من الدقة تلك القصائد القصيرة التي تتحدث عن اليعاسيب، والفراشات، واليرقات، والبعوض.

كما أن قراءة كتاب "الإنسان المتمرد" لألبير كامو قد تساعده بواسطة أدوات الفكر، لأن مجموع القصائد التي كتبها ذلك البستاني الشاعر، لم تكن غير فلسفة خالصة حول الوجود. تردد روبيرتو غادا مرة أخرى أيهما يأخذ أوّلًا: كتاب هنري بويلان حول الحشرات أم كتاب ألبير كامو. "لو استطعتُ أن أقرأهما معًا في الوقت ذاته"، فكّر وهو يجلس قرب النافذة ويسند رأسه إلى مسند الأريكة، مستسلمًا لكسل مُسكِرٍ راح يُغمضُ جفنيه شيئًا فشيئًا حتى تركهُ في نومٍ هادئ.

مارسيل سانسوت، بطلُ رفع الأثقال

مترجمُ القصّة السالفة، الميّال إلى النوم في كلّ الأركان، يمكنُ أن يحلم بنفسه في زمنٍ آخر، في حكايةٍ أخرى، وقد تحوّل إلى رجُلٍ بَدينٍ له شاربان كثّان أسودان يُدعى مارسيل سانسوت، يمارِسُ رفْع الأثقال في سيركٍ من بداية القرن في مانشستر. وبما أن كلّ عرْضٍ من العروض التي يؤديها في السيرك يصيبه بتعبٍ مفرط فإنه، بعد ذلك، عندما يستيقظُ من حلمه، وقد صار مترجمًا في الواقع، يشعر روبيرتو غاذا بالإنهاك وينامُ في كلّ مكان.

لكن، لنُركّزْ الآن على مارسيل سانسوت. إنّهُ بطلٌ كبير في تخصّصِه، في حوزته رقم عالمي في رفع الأثقال، في أقل من خمس وثلاثين ثانية، بوزن يبلغ سبعة وستين كيلو جرام موزعة بين قرصين معدنيّين كبيرين، يرفعُهما أحسن من أيّ إنسان آخر على وجه الكرة الأرضية.

لكن مارسيل سانسوت لا يقوم الآن بأيّ عرض، بل إنه داخل عربة السيرك يُدوّن ملاحظات في دفتر ذي غلاف أخضر بدأ يستعمله لكتابة مُذكّراته منذ مدة طويلة، لأنه في الحقيقة ليس ذلك الرجل الخشن والراضي عن نفسه الذي يبدو، وهو محشُوٌ فيما يشبه لباس حمّامٍ بحمّالتين مُخطّطتين سوداوين؛ كلّا، إنه شخص يُفضّل أن يكون راهبًا متدبّرًا على أن يكون بطلًا في رفع الأثقال يؤدي عروضًا في سيركٍ في مانشستر.

المصباحُ الصغير في العربة يضيء الآن الشعر الأسود الأشعث لمارسيل سانسوت، الذي يفيض تموّجات طويلة فوق الرداء الأحمر الذي يغطّي لباس الحمام المخطّط بالأخضر والأحمر. مستندًا إلى طاولة صغيرة، راح يكتب ساهمًا في الدفتر ذي الغلاف الأخضر:

لا أحبّ أن ينظروا إليّ عندما أرفعُ الأثقال؛ أريد أن أقوم بذلك في عزلتي، من دون شهود. ثم إنني أحيانًا أحتفظ بها هناك عاليًا لمدة طويلة أمسكها بذراعيّ فوق رأسي؛ والشّعورُ بأنني مراقبٌ يُشتّتُ انتباهي، لكن، طبعًا، لا أحد يعرفُ هذا الأمر. لو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلغ هذا مديز السيرك قد يكون الأمر خطِرًا علي. لكن، في الحقيقة، ما قد يعجبني أكثر هو أن أستغل تلك اللحظات من التوتر الجسدي الأقصى كي أنعزل عن كلّ شيء وأتأمل. ذات مرة، قبل سنوات، عندما لم أكن أشتغل في السيرك بعد، حدث لي شيء غريبٌ جدًا. كنتُ قرب بحيرة أولم في ألمانيا، أرفعُ أثقالي، غارقًا في التأمل، مُركّزًا تمامًا على أفكاري، عندما جاء طائرٌ صغير الحجم جدًا وحطّ فوق واحدة منها، يغني في مرحٍ. كانت ثانيةً واحدة فقط كافيةً كي أشعر فجأة بالاستحالة المُلحّة لتحمّل الجهد لمزيد من الوقت، كما لو أنّه بدل ذلك الطائر الصغير الحجم حطّ فيلٌ فوق الأثقال. بضع غرامات من اللحم والعظام المغطاة بالريش كانت كافية لتقطع تأملاتي، وتوقظني على جمالٍ مختلف، وتجعلني أعي فورًا تعبي، والجهد الجبار الذي كنتُ أقوم به.

أرادَ مارسيل سانسوت مواصلة الكتابة لكن يومه كان صعبًا؛ أنهكهُ العملُ، قام بعرضين في السيرك، وحتى لو رغب في ذلك فإنه لا يستطيع مواصلة كتابة يومياته. ودون أن ينتبه تقريبًا نامَ فوق الأوراق المفتوحة للدفتر ذي الغلاف الأخضر.

حين استيقظ، وقد نسي تمامًا أنه كان مارسيل سانسوت في الحلم، أصبح من جديد المترجم روبيرتو غادًا وهو يلج مكتبه في مدينة ساليرنو الإيطالية، مستعدًا للقراءة لبضع ساعات قبل الشروع في ترجمة ديوان الشعر الذي يشتغل عليه. هكذا، جلس أمام المكتبة، وبينما كان يشرب فنجان الشاي، فكّر أيّ كتاب من الكتب الكثيرة التي ينبغي له أن يقرأها سيكون هو الأنسب للظروف، على اعتبار أنه في الآونة الأخيرة لم يعد يجد وقتًا كثيرًا للقراءة؛ الناشرُ يضغط عليه بترجمة الديوان الشعري للكاتب الصيني ل. يانغ وهناك عدة طلبات أخرى في لائحة الانتظار.

لم تكن مهمة اختيار ما يقرأ بالأمر الهيّن. أمام روبيرتو غادًا كان يرتسم بكل وضوح عملان مختلفان: "الإنسان المتمرد"، لألبير كامو، و"حياة الحشرات"، لهنري بويلان. وكلاهما قطعتان مغناطيسيّتان قويّتان تجذبانه لأسباب مختلفة.

هكذا، نهض، أخذ كلا الكتابين من المكتبة، وضعهما فوق الطاولة، جلس من جديد وصبّ لنفسه جرعةَ شاي أخرى. تأمّلَ مجلّدات من نفس الحجم ثم تاهت نظراته

كسلانة في أولى الألوان الصفراء التي يرسمُها شهرُ سبتمبر على أشجار البتولا في الحديقة. هناك، وسط الأوراق المشتعلة، فكّرَ أنه ربّما يجب عليه أن يعترف أنه هو، ذلك الرجل الواثق والحازم فيما مضى، بدأ يتحوّل الى كائنٍ هَشٍّ ومُتردّدٍ بشكل فظيع. تلك الفكرةُ، التي ربّما كانت ستُقلقه في وقت سابق، غمرتْهُ الآن باستسلامٍ عذْبٍ. وهو في تلك الأحلام نام نومًا هادئًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مُشَرْجون

يمشي الرجالُ نصفُ المُخاطين هناك بملابس شبه مستلّة، كأنهم من دون وزن، كمن يتلاشى في الهواء، وهم بالكاد مشرّجون ينفتحون مع أي عثرة إلى تمزقات كبيرة يطلُّ منها الفضوليون، ليروا المنظر الطبيعي وينظر عبرها السيّاح ليتأملوا معالم المدينة، لدرجة أن الكثير من الناس ظنوا أن هؤلاء الرجال شبه شفّافين من شدة تمزقهم. لكن، لزهدهم في الخياطة، يحبون فوق كلّ شيء أن يكونوا هكذا في الحياة، يتخذون شكل رسمٍ خفيف بين الأشياء، متحرّرين من ثقل الملابس الكاملة فوق أجسادهم. يتلاشون خيوطًا طويلة تُهذهِذها الرّيحُ كأنهم طيّاراتٌ جميلة أو فزّاعاتٌ رائعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يومُ أحدٍ في ساحةِ الأبطال

يترنّحُ الطّفلُ الصغير جدًا وهو يحاول أن يمسك بالسارية الضخمة للعلم الوطني، الذي يتقدم المسيرة الحاشدة من أجل الوحدة الوطنية، التي غصّت بها جنبات شارع الاستقلال باتجاه ساحة الأبطال.

"لَوْخ بالعلم، لوّخ بقوة بالعلم!" كان والداهُ يصيحان من خلفه بحماس، كما كان يفعل أصدقاءُ والديه الذين يسيرون إلى جانبهما، وأصدقاءُ أصدقاءِ والديه. في الحقيقة، كلُّ آلاف المتظاهرين يبدون مُتّحدين في نداءٍ واحد نحو ذلك الطفل الذي يتعثّرُ باستمرار في سارية العلم، يترنّحُ ويهدّدُ بالسقوط مرتطمًا على وجهه تحت ثقل تلك الراية الضخمة.

فجأةً، عندما بلغت مقدمةُ المظاهرة ساحة الأبطال، اندلعت ريحٌ قوية وجرفت في صعودٍ لا يمكنُ إيقافه ذلك الطفل النحيف الذي يمسك العلم، ورفعتهُ نحو السحب كما لو أنه بالونٌ كبير.

خرست الصيحاتُ، والشعارات والأناشيد. ذُهِشَ المتظاهرون وظلوا ينظرون إلى السماء بأفواه فاغرة، وهي اللحظة التي استغلها ذبابُ الريح الغربية الشماليّة ليندسّ في تلك الفجوات، وينبش أسنان الوطنيّين المتحمسين. وقد خلّدَ هذا المشهدَ بشكلٍ رائع الرسامُ بيثينتي لانداريبار (بيلباو ١٨٧٠ - مدريد ١٩٥٠) في لوحته الشهيرة "يومُ أحدٍ في ساحة الأبطال"، المعروضة حاليًا في متحف البرادو في مدريد.

وخلافًا لما يُلاحظُ في معظم لوحاته، فإن توزيع عناصر هذه اللوحة يتمحور حول مستوى وحيد، في الوقت الذي لا يوجد فيه كلُّ الأشخاص مصطفّين في منظورٍ منطقي، بل إن تصويرهم الفضائي يتحقق من خلال الحجم التشكيلي للأجسام، والبنايات التي تظهر من زوايا حادة نازلة، والصور المدهشة لبعض المتظاهرين الذين يسمحون للمشاهد بأن يرى داخل أفواههم الفارغة رفرفات الذُّباب ذي الألوان القزحية.

تجميلُ الخنازير

اعتدنا على تأمُّل قُبح الخنازير بوصفه شيئًا مألوفًا، ونستسلمُ لانعدام جمالها على اعتبار ذلك شيئًا طبيعيًا في هذا العالم، لكن هذا ليس له من مُسوِّغ ليستمرَّ على هذا الحال. يقومُ قسمُ البحث المقارن التابع لهوستون فالي، شركة كيمائية أمريكية متخصصة في عالم تجميل الحيوانات، بسلسلة من التجارب على أصناف مختلفة من الخنازير في منطقة الغرب الأوسط من الولايات المتحدة.

تُسلِّط نتائجُ هذا البحث الضَّوءَ على جوانب مختلفة من جماليّة الخنازير. إنَّ التحوُّل الجذري الذي طرأ على العينات التي مرت بقسم التجميل في شركة هوستون فالي قد أقنع في الأخير أكبر الفلاحين تردّدًا.

أمام المظهر الصحي الذي اتخذته خنازيرهم بعد خضوعها لعلاج تجميلي مكثف على يد خبراء، تأكّدَ الفلاحون من أن ذلك ينعكس بوضوح على شكل مزيد من الأرباح الاقتصادية. كما تبيَّنَ من خلال ذلك أيضًا أن مبيعات خنازيرهم قد تضاعفت. بما أنه، منطقيًا، بوضع النفس مكان الزبون المحتمل، ليس أن يقدموا لك خنزيرًا لم يمر بمختبر التجميل هو نفس الأمر إن قدموا لك خنزيرًا يستحقُّ أن نتجوّل به عبر أهم شوارع المدينة نظرا لهيئته الجميلة وأناقته العالية.

في الكُتيّب الصغير الذي قام بعض مسؤولي شركة هوستون فالي بتوزيعه أثناء الندوة الصحفية، هناك قسمٌ مهمٌّ حول خدمات التجميل المتخصصة في العناية بالخنزير. أمام عيني القارئ تمتدّ حزمة متكاملة من خدمات التجميل: إزالة الشعر عن الجلد بكامله، العناية بالحوافر، تنويعات من تجعيد الشعر خاصة بالذَّنَب الذي يميز الجزء الخلفي من ظهر جنس الخنازير، بالإضافة إلى إبراز الرُّموش، بل وأيضًا دروش تكوينية من أجل الحصول على مشية متناسقة. هذه فقط بعض الخدمات التي تقدمها الشركة، والتي لا يسمح الحيّزُ الضيق لعمودي هذا بسردها كاملة للقارئ. لكن، كلّ من يهتمُّ بالموضوع يمكنه أن يتصل بمكاتب البلدية ويسأل عن الكتيبات الإخبارية الخاصة بتجميل الخنازير. وفيها يمكن أن يجد خلاصة وافية عن العلاجات، والدروس، بل وحتى الاستشارة الاجتماعية بالنسبة للحالات الصعبة من

أشكال المقاومة التي تبديها بعض الخنازير أمام أي نوع من عمليات التجميل.

هذا خبرٌ من الأخبار السارّة التي تتمنى أيُّ صحفيّةٍ مثلي أن تستيقظ عليها كلّ صباح، أخبار تبرهن بكل وضوح عن المستويات العالية التي بلغها تطور مجتمعاتنا بفضل مجهود أوساطنا العلمية ومثابرتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سمكرية

- يمكنُ أن تغسل يديك إن شئت ذلك. قالت السيدة مونتي بلطف وهي تُقرّب المنشفة الناصعة البياض من السمكري الذي انتهى للتو من إصلاح صنبور الحمّام في بيتها.

- من الأحسن أن أزيلهما وأرميهما في القمامة؛ بعد العمل طوال اليوم، تصبحان كسلانتين.

وما إن قال ذلك حتى فكّ ذلك الرّجُلُ ذو المظهر الطيب كلتا يديه، وأمام العينين الدّهِشتين للسيدة مونتي رماهُما في سلة القمامة.

وهي ما تزال مدهوشة مما رأته للتو، سألته:

- وبقية الجسد، هل يجب عليك أيضًا، يا سيدي، أن تستعمله ثم ترميه؟

- طبعًا، سيدتي. اليوم يا سيدتي، إنْ رغبتِ في خدمات سمكري من لحمٍ ودم، كما في الزمن القديم، له جسد مدى الحياة، فعليك أن تدفعي ثمنًا باهظًا. وهذا مكلفٌ جدًا.

- طبعًا. قالت السيدة مونتي من دون أن تكون مقتنعة تمامًا، وهي تؤدي له فاتورة إصلاح الصنبور، وتُفكّر في هذا العالم الجديد القادم من الرجال والنساء الذين يمكن تركيبهم وإزالتهم، وهو ما لم تتعوّد عليه بعد.

منظرٌ يليقُ بالفراك

وقارٌ غريبٌ يسبقُ اللصّ في صالون الملك، لغةٌ منمّقة تنوءُ، حركاتٌ مسرحيةٌ تدرّبَ عليها جيّدًا في خطابه الذي ينسفُ كلّ إمكانية للدّفاع. أخيرًا، عندما يصبحُ طريقُ اللّص إلى ضحاياه خاليًا من العراقيل، يحصُل التحوُّل المنتظرُ، لحظةُ أوجِ المظهر الخدّاع: تحوُّل اللّصّ إلى ضامنِ أمن رعاياهُ المستقبليّين؛ وهو يؤدي اليمين بوصفه وزيرًا أوّلَ، يقسمُ بوفائه للدستور، واضعًا يدهُ اليمنى فوق الكتاب المقدس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صبّاغ اللّمسات الأخيرة

أنا صبّاغُ اللّمسات الأخيرة. يتمثّلُ عملي في إتمام صباغة تلك المساحات الضيقة التي تقع على حدود الأشياء، مثل الأقفال، والمقابس، والمقابض، والنوافذ، الخ... التي يرفض صبّاغو الفُرشاة مواجهتها نظرًا لما تطرحه من صعوبة.

أنا أعي أن الدقة التي أمارس بها عملي وتخصصي فيما هو متناهٍ في الصغر، تُقرّبني أكثر إلى عالم الفن أكثر من أي مهنة أخرى. لذلك، حين يطلبون خدماتي في بيتٍ من بيوت المدينة، أشعرُ في نفسي بالطبيب والراهب اللذين يُلبيّان نداء أولئك الذين هم بحاجة لتصحيح ما شوّشت عليه البيولوجيا أو الروح. وحين أشعرُ أنني ضروري بهذا الشكل، يثور حماسي لدرجة أنني قد أسترفعُ، أرتفع فوق الأرض وأتوجه إلى بيت الزّبون محلّقًا مثل طائرٍ خفيف صغير الحجم، أرتدي سعيدًا رداء عملي الأزرق الماهوني وأحملُ حقيبتي الخشبية التي أضع فيها أدوات الصباغة.

حين أصل إلى بيت من طلبوا خدماتي، فإن أول ما أقوم به هو تنبيه زبائني إلى شروط الصمت والهدوء القصوى التي أحتاجها لإنجاز عملي.

في كثير من الأحيان، أستعملُ تقنيات الرسم التي يستعملها بعض أساتذتي الذين أعجبُ بهم مثل دييغو فيلاثكيث أو يوهانس فيرمير، حسب الأجواء النفسية المنبعثة من مكان البيت الذي أقوم فيه بالصباغة.

هكذا، مثلًا، هناك مادةٌ مُلوّنةٌ مفضلة لدي وتعجبُ الزبائن كثيرًا هي المسماة "أصفر هندي"، المصنوعة من بول البقرة التي أطعموها فقط نخالة الشوفان وحبّات التّفاح. كان الرسامون الهولنديون في القرنين ١٧ و١٨ يقدرون كثيرًا هذه المادة المُلوّنة نظرا للّمعانها الرائع، وكثيرًا ما كانوا يستعملونها لرسم ضوء الشمس. يُقال إن فيرمير استعمل "بول البقرة" ليرسم زوجته في لوحة "الفتاة ذات القرط اللؤلؤي".

أعُدّ كلّ عملية إتمام بمثابة لوحة جديدة. أحاولُ أن أحوّلَ تلك الأماكن التي أتدخّلُ فيها بفرشاتي إلى فضاءات صغيرة للحلم والتأمل، وألاّ تكون فقط ما يحيطُ بنافذةٍ أو قفلٍ، بل شيئًا أقرب إلى عالم الروح. ويبدو أنني أفلح في ذلك في كثير

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

من الأحيان، لأن زبائني كثيرًا ما يعترفون لي أنهم يظلون ساهمين وهم يتأملون تلك الأماكن القريبة من مقبس أو زاويةِ سقفٍ، وأنّ مجرد النظر إلى الفروق الطفيفة في ألوان الصباغة، تدرُّج الأضواء، والطلاءات الملمعة، الخ... تُدخلُهم في حالة من الاستمتاع والهدوء، شبيهة بتلك الحالة التي يحدثها تأمُّلُ الجمال في العيون الحساسة.

لكن، الويلُ لكلِّ أولئك الذين لا يستجيبون لشروطي وبدل أن يفهموا حاجتي للهدوء والصمت، يصرخون في الممرات، يصفقون الأبواب والنوافذ مثل متوحشين غير مبالين، يعتمون كلّ شيء بلغتهم الفقيرة التي تفوح برائحة كريهة، يتهكّمون من خلال تصرفاتهم العنيفة من مهنتي بوصفي صبّاغًا يضع اللمسات الأخيرة. هؤلاء الزبائن لا يستحقّون منّي سوى الازدراء، وكل ما يتبقى لي هو أن أتخلّى عنهم، أتجاهل نداءاتهم، دموعهم، حزنهم بسبب اضطرارهم للعيش وسط أشياء لم تتم، وسط آفاق يومية لم تحظ باللمسة الأخيرة.

هؤلاء الأشخاص، العاجزون عن أدنى إحساس تجاه الفن، يرغبون مع ذلك، مثل بقية المواطنين، أن يكون كلّ شيء في بيوتهم جميلًا وعصريًا، أن يظهر بمظهر الجمال، تامًا مكتملًا، فينادون عليّ من جديد ويتوسّلون لي، لكنهم لا يحصلون مني سوى على الصمت، لأنني لا أعود أبدا إلى البيوت التي تعرّضتُ فيها للإهانة، وغالبًا ما يجنّ جنونهم فيخربشون جدران بيوتهم بلغات غريبة، ويبتعدون إلى حدود تفوق الخيال عن التصرف اللائق والنظافة، فيتحولون إلى حيوانات غامضة يشتبكون في شُعور طويلة وسخة مُتدلّية، يتعثرون ليل نهار بكراسي، مصابيح وأبواب، وسط هدير ابتهالات فظة غير متجانسة يتوسلون من خلالها مرارًا وتكرارًا إتمامًا، نهايةً لأيّامهم.

في الأخير، حين يصبحون أشخاصًا لا يُطاقون، يُبلّغُ عنهم جيرانهم بوصفهم خطرًا عموميًا، فيقتادونهم أمام العدالة، وبعد محاكمات قضائية سريعة، يُحكم عليهم، ويتراوح الحكم، حسب مزاج القاضي في ذلك اليوم، بين إدخالهم إلى واحدة من تلك المؤسسات الخاصة بالهمجيين التي تحيط بوسط المدينة، أو يحرقونهم

في الساحة الكبرى في واحدة من تلك النيران الإيكولوجية التي تشتغل بالطاقة الشمسية، والتي دأبت الحكومة في الآونة الأخير على تشجيعها في إطار حملتها لحماية البيئة.

كما ترون، عملي ليس بالهين، ثم إن المرء، في كثير من الأحيان، بوصفه صبّاغ اللّمسات الأخيرة الوحيد في المدينة، عليه أحيانًا أن يتخلص من القلب الذي يشكل عبئًا على التحليق الفني، وأن يذهب إلى هناك مثل كائن مجنّح، من دون روح، في ظروف ملائمة لخفّي الكآبة السوداء، التي تُلحق أيّما ضرر بحساسية الروح المفرطة.

بحثٌ سماوي

زَبَابَةٌ صغيرةٌ تعاني من الأرق، وصارت فيلسوفةً ترغبُ في الاتصال ببوم من أجل القيام ببحثٍ سماوي. تعوزُني الموارد لكني أملك فضولًا كبيرًا، وهو شيءٌ أساسي للتقدم في مجال العلم، كما يعرف الجميع.

أمام استغراب الكثيرين وهم يرون هذا الإعلان في جريدة الحيوانات، الذي يستدعي بالضبط من كان أكبر أعداء بني جلدتي لعدة قرون، سوف أشرحُ أنني اخترتُ البوم رفيقًا محتملًا في هذا العمل، لأنني أُقدّرُ عاليًا تكتُّمه ومواهبه في الملاحظة أثناء الليل.

على أيّ حال، أنا واعيةٌ بأنه عليّ أن آخذ في الحسبان، إن نحن اتصلنا بعضنا بعضًا في نهاية الأمر، الخطرَ الكبير الذي يمكن أن يشكله اقترابُه مني على سلامتي الجسدية. لكني مستعدة لذلك: بدلةُ عملي ستكون عبارة عن درع لا يبرزُ منه سوى شاربيّ الدقيقين. وبهذه الطريقة، لا تتعرّض حياتي لأي خطر يذكر، رغم أنها، في الواقع، ومن الناحية البيولوجية، قصيرة جدًا، سنة واحدة فقط، وهو الوقت الذي ينبغي لنا أن نتطور فيه بسرعة ونُنجب زَبابَات جديدة. طبعًا، تعتبر سنة حياتنا زمنًا خالدًا إذا ما قورنت بدورة الحياة القصيرة جدًا للبعوضة التي لا تتجاوز أربعًا وعشرين ساعة. على أي حالٍ، كلّ شيء نسبي.

إنّ اهتمامي الشغوف بالبحث السماويّ ينطلق من إشاعة حول كوكبة الدّب الأكبر، التي كثيرًا ما سمعتُهم يحكونها خلال ليالي الشتاء عندما تخلدُ الغابة التي أعيش فيها للنوم تحت غطاء من الثلج.

يعرفُ الجميع أنه تزوّجَ عدة أساطير حول كوكبة الدّب الأكبر، كثيرة بكثرة عدد البلدان والثقافات الموجودة في العالم. هناك واحدة من أول هذه الأساطير، وتحديدًا تلك التي سُمّيت الكوكبة باسمها، ونشأت في اليونان: كان زيوس متزوجًا بحِيرًا ويحبُّ امرأة تدعى كاليستو؛ حملت منه هذه الأخيرة، فوقع زيوس في حرج، وتوتّرَ كثيرًا لهذا الظرف، وحتى يُجنّب عشيقتَهُ غضبَ زوجته حِيرًا، بما أنه إلهٌ ويتمتع

بقدرات خارقة، حوّل كاليستو إلى ذبٍّ عرَض صورتَه في السماء، ليجعلها منذ تلك اللحظة بالذات هي كوكبة الدُّب الأكبر.

أما الشعب الباسكي، فيُميِّزُ في النجوم السبع اللامعة ثورين يتعقَّبُهما لصّان يرقبان صاحب الثيران، خادِمَهُ وخادمتَه. بينما النجمة الثامنة، الأقل لمعانًا، المسماة ألكور، فقد تكون كلبًا صغيرًا.

كما ترون، كثيرة هي الأساطير حول كوكبة الدّب الأكبر، لكن هناك أسطورة ذات أصل مجهول هي التي تهمُّني والتي تشير إليها إشاعات الغابة. في هذه الأسطورة، تصعدُ النجمة الصغيرة ألكور، وهي فأرة صغيرة، فوق نَيرِ الثورين وتقضمُه دون كلل. حسنًا، عند هذه النقطة يبدأ حقًّا سبب قيامي بالبحث: أودُّ أن يُوضّح لي البومُ إن كانت هذه الفأرة الصغيرة التي يتحدثون عنها زَبابَةً في الحقيقة؛ فعديد من الناس، بسبب الجهل، يخلطون بيننا، رغم أنه لا علاقة بيننا من الناحية العلمية. نحن ننتمي إلى فصيلة آكلي الحشرات ونشكل جزءًا من عائلة الفأريات، ونظرًا لخطمنا المخروطي فنحن أقرب إلى حيوانات الخلد منا إلى الجرذان. تتشكل قوائمنا الأمامية والخلفية من خمسة أصابع، بينما الجرذان تتوفر على أربعة أصابع أمامية مقابل خمسة خلفية؛ على كلّ حال، يمكن أن أستمر في لائحة طويلة من الفروق، لكن هذا لا علاقة له بالأمر؛ لأن ما يهمنا الآن موضوع آخر.

شخصيًا، أعتقد أنه لو تأكد ذلك، كما أحدس، أي أن تكون الزبابة جزءًا من الأساطير الغنيّة حول كوكبة الدّب الأكبر التي تروج في العالم، قد يكون أمرًا يغني بشكل كبير الوعي الذي يملكه جنسي عن ذاته. وبذلك يتم التعويض عن حياتنا سريعة الزوال بالأمر العجيب المتمثل في أننا جزء من القبة السماوية.

لذلك أريدُ أن أستشير البومَ؛ أعرف أنه، بفضل ما يتمتع به من قدرات كبيرة على تفحص الليل، يمكن أن يعرف كيف يجيبُني أحسن من أيّ أحدٍ آخر. لكن، كما قلتُ من قبل، أحتاجُ في هذا اللقاء الممكن إلى درع صغير يقيني ويعطيني أمانا أثناء الحوار. وهناك يبدأ مشكل صغير: أين يمكن العثور على شخص يصنعُ دروعًا صغيرة جدًّا؟

أجدُني مضطرة، إذن، لنشر إعلان آخر:

ثمة حاجة لمعلومات حول من يستطيع إنجاز درعٍ خفيف لزبابةٍ يبلغ طولها ٥٠ سنتيمترًا. يحتاج هذا الدرع لثقبين جانبيين يستطيع شاربي الدقيقان أن يخرجا منهما إلى الخارج، بالإضافة إلى ثقب خلفي خاص بذيلي الطويل.

كم من المعاناة من أجل بحثي السماويّ! مع أنه لم يبدأ بعد! لكني لا أشعر بالإحباط، فبحثي المعرفيّ حول هويّتنا الخيالية سيكون لا محالة مكثفًا ومفيدًا جدًا للشعور بالاحترام الذاتي لدى الزبابات.

نتمنى أن يتفهم البومُ أهمية أسئلتي ويترك جانبًا رغباته في الافتراس؛ وسيقوم بذلك من دون شك، هو الذي يرمز إلى الحكمة في الأسطورة الكونية.

في هذه اللحظة من المونولوج، عندما يبدأ الضوء يخفت قليلًا جدًا فوق خشبة المسرح، تعلو موسيقى كمان حزينة، وتظلُّ خشبة المسرح غارقة في العتمة؛ يجتهد المتفرجون في النظر عبر الظلال، لكنهم لا يفلحون في تمييز أي شيء فوق خشبة المسرح الفارغة؛ ينتظرون أن يُعيدَ لهم المشهدُ الموالي شيئًا من الوضوح لكن لا شيء من ذلك يقع، ربّما تكون الأرض قد ابتلعت الزبابة البطلة؛ وكل شيء يشير إلى أن المشهد الموالي لقيَ نفس مصيرَ البطلة؛ في فناء الكراسي تُسمع طقطقات، ويتململ الناس قلقين في مقاعدهم؛ أصوات دهشة في البداية وبعد ذلك أصوات استياء بدأت تُسمع وسط الجمهور.

- ولكن، أيّ مزحة هذه؟ صاح رجل في الصف الثالث وهو يرمي، بطريقة طائشة نوعًا ما، قبعته نحو خشبة المسرح، كي ينتبه فورًا إلى أنه سيجد صعوبة كبيرة في العثور عليها وسط كلّ تلك الجلبة التي تتزايد في الظلام.

- أشعلوا الأضواء! صاحوا من كلّ حدب وصوب.

لكن، مهما بدا الأمر غريبًا، لم تُشعل الأضواء، حتى خارج خشبة المسرح. صمتت آلاتُ الكمان، وسرعان ما بدأت، من دون أي سبب واضح، موسيقى مروّعةٌ ومدوّية من الأبواق التي أثارت الخوف في نفوس كلّ من كانوا ينتظرون أن يستمرّ العرضُ، حتى إن العديد من الأشخاص في فناء الكراسي عانوا من حالات إغماء كان سببها

من دون شك هو التأثير القويّ، المحيّر وذو الصوت العالي، الذي لحقّ بآذانهم. عفت الجلبة الآن كلّ الأرجاء، أُلقيت بعضُ الأشياء، من قفازات، وأمشاط وحافظات نظارات، نحو خشبة المسرح الفارغة التي كانت ما تزال غارقةً في العتمة. ورغم هذا كله، لم ينزل الستار.

بعد الأبواق جاء دور الطبول، وبعد هذه كان الخروج غير المنظم والغاضب للجمهور الذي لم يكن يعرف إلى أي شيء يسلم زمام أمره. في اليوم التالي، عرضت الصحافة آراءً متضاربة حول العمل الموسوم بعنوان "بحثٌ سماوي"، الذي كان يندرج في إطار برنامج "حكايات وطنية كبرى" المدعوم من لدن القسم الثقافي للحكومة، والذي أثار استنكار عشّاق المسرح في المدينة. بالنسبة لبعض النقاد، يتعلق الأمر بسخرية، بينما كان آخرون يرون أن العمل يمثل بشكل دقيق الاتجاهات التجريبية الجديدة في المسرح المعاصر، التي تطمح من خلال عروض غير خطّية أن تثير لدى المتفرج أسئلة جديدة حول كلّ ما يحيط به.

أثناء ذلك، وبينما كان الوضع يتّجه نحو خروجه عن السيطرة، غادرت الممثلة سيلفيا مورفي التي كانت تلعب دور الزّبابة المدينة نحو وجهة مجهولة، كما غادرها أيضًا مخرج المسرحية والدو روسيتي وبقية أفراد فرقة مورفي وروسيتي.

أمام هذا الوضع الذي آلت إليه الأمور، ينبغي التساؤل: هل سيُغَيّرُ كلّ هذا تلك النظرة التي كانت لعشاق المسرح، إلى حد الآن، عن الزّبابات؟ وخصوصًا، هل ستأثر هذه التجربة المسرحية الفريدة في النظرة المستقبلية التي ستكون لمواطني مدينة كونستانس حول القبّة السماوية؟ لأنه، مما لا شك فيه، هو أنّه كلما رفعوا عيونهم إلى السماء بحثًا عن كوكبة الدّب الأكبر، سيتذكرون ذلك العرض المسرحي المُحيّر حول أحلام الزّبابة، وبهذه الطريقة، حتى من دون أن يعلموا بذلك، سيكونون بصدد المساهمة في نشر ومنح شيء من المصداقية الخيالية للأسطورة التي تُرَوّج في غابات الأرض عندما يحل فصل الشتاء، والتي تقول إن فأرة صغيرة تقضمُ وتقضمُ نَيرَ ثورين يسافران عبر ليل المساء على شكل نجمتين.

قَسَمٌ

بعد النجاح الانتخابي، أدّوا القَسم اليميني وهم يضعون حوافرهم فوق الكتب المقدسة، وبعد ذلك أجبرونا، نحن الرعايا، على أن ننزع رؤوسنا ونضعها مسرّحة الشَّعر أمام أبواب بيوتنا، حتى تجمعها فرقُ جمع النفايات وتأخذها بكل عناية إلى المَكبّ البلدي.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الاعترافُ

كان السيد خيسوس أوردونييث من كبار المعجبين بكتاب اعترافات القديس أغوستينوس١. كان قد قرأه عشرات المرات، بل ويحفظ عن ظهر قلب بعض المقاطع، مثل ذلك المقطع المعروف في نهاية الكتاب، والذي يقول:

"مولاي الإله، أعطنا السِّلْم، فقد قدّمتَ لنا كلّ الأشياء؛ سِلْمَ الراحة، وسِلْمَ السّبت، والسّلام دون أفول. فكلُّ هذا التلاحق الجميل للأشياء الطيبة جدًا سينقضي بعد اجتياز حدوده؛ إذ جعل لهم، لعمري، الصباح كما جعل لهم المساء".(1)

لذلك، لم يستطع أن يفهم كيف أن ذلك الرجل على حافة الموت، ذلك الرجل، بالبينو غارثيا دي ألبيثو أوسوربارّينا، عاشق الطبيعة، الذي يعرف الأشجار والأعشاب البرية، الذي مارس لسنوات طوال مهنة حارس الغابة في جبل ليمتاثيونيس في سلسلة جبال أورباسا، والذي يعتبره الجيران شخصًا طيبًا، أبدى مقاومةً ليعترف بخطاياه مرارًا وتكرارًا.

نعم، لقد كان ذلك لغزًا حقيقيًا بالنسبة له، هو قس القرية الصغيرة أولاتي في إقليم نابارًا، الذي نسي الوصية الخامسة(2)، وكان يشتغل أيضًا مدرّبًا لرماة المسدسات من مُجندي ريكيتون، خلف الجدران الخلفية لكنيسة سان مارتين التي تقع وسط القرية بالضبط. كان أمرًا واضحًا إلى أي صف ينحاز السيد القس. لكن، حسب ما يُروى، كان بوسعه أن يتجنب موت أولئك الرجال الثلاثة، الذين كان بينهم جدّي، والذين اعتقلوا بتهمة الشيوعيّة ومساندة الجمهوريين. لكنه لم يفعل، وتركهم بين أيادي أولئك البلطجيّة، أصدقاء الانقلابيين الذين كانوا يتأهّبون لقتله ليلة السابع من سبتمبر من سنة ١٩٣٦ في سلسلة جبال أورباسا.

تلقى الرجال الثلاثة رصاصة وحيدة في الرأس، عند أسفل الأرض العراء حيث رموا أجسادهم بعد ذلك، وهي الهوة التي كان الرعاة يلقون فيها المواشي الميتة. في ذلك اليوم، أو بعد ذلك بقليل، رمى أحدهم هناك كلبًا نجا من الموت وهو يقتاتُ على الجثث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن، لنعد إلى قرية أولاتي وإلى تلك الليلة المشؤومة. كان خيسوس أوردونييث يتجوّل صعودًا ونزولًا في كنيسة القرية، يمسك بين يديه كتاب الصلوات، يتذكر المقاطع الجميلة من اعترافات القديس أغوستينوس، ويتساءل مرة أخرى حول ضيق عقلية وعناد بعض بني البشر الذين يصرّون على أن يبتعدوا عن هذا الحوار المُحيي والمنقذ مع الرّب، أي الاعتراف بالخطايا.

لكن، مما لا شك فيه -كان يفكر القس- كان الرّبُّ يسامحهم انطلاقًا من حبّه الواسع.

ملاحظة: في ذكرى جدّي بالبينو غارثيا دي ألبيثو أوسورباڑينا، الذي اغتيل بتهمة الشيوعية يوم السابع من سبتمبر من سنة ١٩٣٦ في سلسلة جبال أورباسا. (إقليم نابارّا)

---

(1) اعترافات القديس أغوستينوس، ترجمة إبراهيم الغزلي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، ٢٠١٢، ص. ٤٨٨. (المترجم)

(2) تقول الوصية الخامسة: لا تقتُل. (المترجم)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القُطبيّة

منذ أكثر من عشرين عامًا ومحلُ بيع الأسماك "القُطبيّة" يقعُ في الزاوية بين شارع أوردانيتا وشارع تشوزُوسكا في مدينة سان سيباستيان. عهدتُه دائمًا هناك، رغم أنه كان من قبل مجرد محلٍ لبيع الأسماك الطازجة فإنه اليوم، بعد أن تمّ تحديثه وانسجم مع تطورات العصر، أصبح واحدًا من محلات السّمك المُجمّد الأكثر غرابةً وفرادةً في المدينة. عندما يدخل المرء إلى هناك يجد كلّ شيء عبارة عن بَرْدٍ وصمتٍ: طهارة المكان وتعقيمه شاملان؛ ولو كان الأمر مستعجلًا يمكن ارتجال غرفة لإجراء عمليات جراحية بكل اطمئنان، من دون أي خطر على المريض. كلّ شيء هناك أبيض؛ الأرضية، الجدران وبدلات المستخدمين.

ترتفعُ غُرَفُ تبريدٍ كبيرةٌ على جانبي الممرات الثلاثة التي تشكل هذا الفضاء الطّاهر. قرب كلّ غرفة تبريد يقفُ مستخدمٌ حارسًا للبرْدِ، ويقوم المستخدمون بتقديم السّمك الذي يختاره الزبائن الذين يُمنع عليهم منعًا كليًا لمسُ أيّ منتوج من المنتوجات المجمّدة. كما لا يسمحُ بقضاء وقت طويل أمام غرف التبريد من أجل اختيار المقتنيات، لأنه، حسب ما جاء في القانون المعلق في لافتةٍ عند الباب، فإنّ حرارة الجسم يمكن أن تنتقل إلى المبردات وتفسد عمليّة التجميد. هكذا، أحيانًا، بما أنه ينبغي اختيار المنتوج بسرعة، أخلطُ في ذهني أنواعًا مختلفة من الأسماك، وبعد ذلك تُشوّشُ عليّ السرعةُ، وحتى لا أجعل المستخدم ينتظرُ، وهو يترقّب اختياري بوجه متصلب، أطلبُ أوّلَ سمكة أجدها أمام عيني، كما حدث في ذلك اليوم، حين اخترتُ بالخطأ سمكة ذات حجم كبير، سوداء وحمراء ولها غرَفٌ أخضر شائك وعينا مجنونٍ، قبيحة جدًا. كان شكلها بشعًا يثير الخوف في النفس، فرميتُها في البحر ما إن غادرتُ المحلَّ. ما كنتُ لأبقى وحدي معها في البيت مقابل أيّ شيء في هذا العالم. أمام دهشتي، ما إن رميتُها حتى ذابت بسرعة وراحت تسبح باتجاه الأعماق. بقيتُ متجمّدة كالحجر، لكن، حين استطعتُ أن أتجاوز ذلك الانبعاث غير المتوقع، تذكّرتُ شيئًا كان قد حدثنا عنه أستاذ اللغة الفرنسية بشأن خاصّية بعض الأسماك التي حين يتم تجميدها حيةً فإنها لا تموتُ، بل تدخل فقط فيما يشبه السبات، الذي

يمكن أن تستيقظ منه إنْ توفّرت الظروف المناسبة لذلك. ولقد توفّرت، من دون شك، في حالة وحشي الفظيع ذي الغُرف الأخضر.

كثيرٌ من أصدقائي يقولون لي إنهم لا يفهمون كيف أستطيعُ أن أستمرّ في الشراء من هذا النوع من المحلات، التي تُعاملُ الزبائن بلُطف قليلٍ جدًّا؛ أستطيع أن أفهم استغرابهم، لكن ما يحدث هو أنّ محلّ "القُطبيّة" يمارس عليّ جاذبية خاصة. هناك يمكن أن نجد، بالإضافة إلى كلّ أنواع الأسماك المعروفة، من سمك النازلي، عفريت الحبر، الكيدم، وسمك القدّ، الخ... أنواعًا عجيبة لم يسبق لأحد أن رآها في المدينة، مثل السمك المسمى "السّمكةُ المُضاعفَة بقلْبين"، قلبٌ نهاري على اليسار، وآخرُ ليليٌّ على اليمين، أو "سمكةُ يوكاتان العمياء". شكل هذه الأخيرة مشؤوم؛ فمكان العينين لها نتوءان اثنان من العضلات والجلد تشكل ذكرى وحيدة لحاسّةٍ فَقَدَتها، لأنها لم تعد مفيدة لها وسط الظلام الدامس الذي كانت تعيش فيه.

لهذا السبب، وحتى تعوض حاسّة النظر، طوّرت "سمكةُ يوكاتان العمياء" نظام توجيه يعتمد على تجويفات حسّية تتوزع حول ما كان ينبغي أن تكون فيه العينان، بالإضافة إلى سلسلة من الحليمات الصغيرة، وأطراف عصبية، حسّية بدورها، تنتشر في كلّ أنحاء جسدها. في الحقيقة، تعتبر كلها مجموعة من أجهزة استشعار توجهها وتدافع بواسطتها عن نفسها في أعماق البحر.

كما يُقال أيضًا إن هذه السمكة تمتلك رؤية داخلية قوية، وفي كثير من الأحيان يتركها هذا الانغماس فيما يشبه النشوة، لأنها تكون شاهدة مميزة على الاشتغال الرائع للآليّة الداخلية التي تتكونُ من عضلات، هُلام، خياشيم وأشواك تُشكّل بالنسبة لها موسيقى فوق صوتية جميلة، تبلغ من خلالها "سمكةُ يوكاتان العمياء" حالة من النيرفانا لا تتردد الدراسات العملية في تصنيفها بالرائعة ضمن ما قد نُسميه ميتافيزيقا حيوانية ممكنة.

أعرفُ كلّ هذه الأمور بفضل الأحاديث حول الأسماك التي تجري مرة في الشهر في الغرفة الخلفية لمحلّ بيع الأسماك "القُطبيّة"؛ فهناك يمكن لكل من يرغب في ذلك أن يطّلع مجانًا على عالم الأسماك بالاستماع إلى الأحاديث الممتعة لموسوعيين

مختلفين في عالم البحار، من غلماء أحياء إلى صيادين هواة متواضعين يخصصون بكل لطف جزءًا من وقتهم لتنمية معرفتنا بالأسماك.

كل هذا جعلني أرى بوضوح أكبر مستقبلي كحارسة جهاز تبريد في محلّ بيع الأسماك "القُطبيّة". تبدو لي مهنة جذابة؛ أعرف أنه لا أحد من محيطي العائلي أو من أصدقائي سيفهم رغبتي، لكن هذا لا أهمية له؛ تكفيني فكرة أنه في إطار الدينامية السريعة التي يختار بها الزبائن المفترضون سمكهم، يمكن أن يحدث مرة أخرى ما وقع مع تلك السمكة القبيحة ذات العرف الأخضر الشائك، بمعنى أن يُصاب زبون ما بهلع كبير بسبب السمكة التي اقتناها للتوّ فيرميها على الفور دون تفكير إلى البحر وتتحقق، بذلك، عودتُها إلى الحياة.

هكذا، ما إن علمتُ أنهم بحاجة لحارس جديد للمجمّد في الممر رقم اثنان من محلّ بيع الأسماك "القُطبيّة"، حتى تقدمتُ وحصلت على الوظيفة. دفعني شغفي باستعادة الأسماك إلى أن أنجز عملي بحماس كبير جدًا، حتى إنني لا أسمح للزبائن بالتوقف سوى لثوانٍ معدودة أمام غرف التبريد لاختيار السمك. ولهذا الغرض، سمحت لي الشركةُ باستعمال سوطٍ صغير أسوطُ به دون شفقة كلّ من يجرؤ على البقاء أكثر من ثلاث ثوانٍ أمام أي واحدة من غرف التبريد الثلاثة التي كلّفوني بخدمتها. وهذا يخدم أهدافي بشكل هائل، بما أنه، عمومًا، يتألم الناس ويخافون، فيأخذون أول سمكة يجدونها، وعليه فقد فكّرتُ في أن يكون دائمًا عدد الأسماك ذات الشكل الفظيع أكثر من عدد بقية الأسماك الأخرى بكثير؛ لا أعرف إن كانوا يتصرفون بعد ذلك كما تصرفتُ أنا مع تلك السمكة الفظيعة ذات العُرفِ الأخضر فيلقون بمشترياتهم في البحر، لكني كنتُ دائمًا أحتفظ في نفسي بإمكانية أن يفعلوا ذلك.

ومن المفارقات أن غرف التبريد الثلاثة التي كنت أخدمها كانت هي التي تعرف تردّدًا كبيرًا من قِبَل الزبائن، رغم أنني أجلدُ وجوههم، سواعدهم وظهورهم دون شفقة؛ أجهل السبب، لأن الكائن البشري يبقى سرًّا عظيمًا بالنسبة لي. لكن، في الآونة الأخيرة، توصلت مع الشركة إلى اتفاق غريبٍ، مفاده أنني من حين لآخر -فقط من

حين لآخر. يُسمح لي بالغياب عن مكان عملي والقيام بمتابعة أي زبون من الزبائن يكون قد اقتنى سمكًا من واحدة من غرف التبريد التي أحرسها، لأرى إن كان عند خروجه من محلّ بيع الأسماك "القُطبيّة" لا يلقي على الفور بسمكه في البحر، ويسمح لي بإمكانية دفع الزبون مع السمكة لتعتني بهما المياهُ، وتتضاعف بذلك احتمالات انبعاث السمكة.

سعادتي غامرةٌ، إذ رغم أن عدد سكان المدينة قد انخفض، بسبب اجتهادي في ممارسة عملي، فقد اغتنت مياهُ سواحل بحرنا بتشكيلة متنوعة من الأسماك الفظيعة التي سوف تصنع سعادة هرمان ملفيل العظيم، صاحبُ موبي ديك.

مصائبُ فرانكنشتاين

تدور أحداث المشهد في شارعٍ من حيّ هامشي من أحياء نيويورك. جالسًا وراء حاوية من حاويات القمامة، يبكي فرانكنشتاين بحرقة، وقد أصبحت معنوياته في الحضيض. هو، ذلك المخلوقُ الفظيع الذي تخيلته الكاتبةُ ماري شيلي سنة ١٨١٦، ونُقلَ بعد ذلك بنجاحٍ كبير إلى السينما، لم يعد يُرعبُ أحدا.

كانت هناك فترة كان فيها منافسه الوحيد هو الكونت دراكولا، لكن ذلك الأمر كان سهل الاحتمال؛ فقد كان لكلٍّ واحد منهما مجاله، ولا يزعج أحدهما الآخر. وعلاوة على ذلك، لم يعجبه مصُّ الدماء قطّ؛ بل إن ما كان يناسبه حقًّا هو أنْ يُرعب الناس بعض الشيء، ويراهم يركضون مثل أرواحٍ يقوذها الشيطان.

لكن كلّ شيء تغيّر الآن؛ أصبح العالم يعيش مرعوبًا من طرف مصرفيّين لا قلبَ لهم يمتصُّون الجُيوب. يرعبُه كبارُ الأغنياء ممن يشترون بلدانًا بكاملها ثم سرعان ما يرمونها في القمامة بعد أن يملّوا من اللعب بها. يرعبُه حُكامٌ مجانين يتسلّون باختلاق الحروب، يبنون سلطتهم فوق جبال من القتلى. نعم، لقد تحوّل القرنُ الحادي والعشرون إلى فيلم رعبٍ حقيقي.

لأول مرة، كان فرانكنشتاين، بالإضافة إلى حزنه، مرعوبًا. لذلك، حازمًا، خطى خطوتين إلى الأمام، رفع ساقه اليسرى، ثم ساقه اليمنى وخرج مهرولًا من الشاشة، مغادرًا ذلك الفيلم الفظيع الذي صارت عليه حياتُه.

تجاوزَ المقاعدَ وبلغَ الماضي بحثًا عن مُبدعَتِه، ماري شيلي. حين وجدها، توسّل إليها جاثيًا على ركبتيه: "مَن فضلكِ، لا تبتكِريني؛ هنالك منافسة كبيرة من وحوش فظيعة؛ ومنظري مُضحكٌ". يائسةً، ألقت الكاتبة فورًا بنفسها في البحر، وكان ذلك سنة ١٨٦١، ففرقت قبالة أجراف إكسمور. لم يوجد فرانكنشتاين قطّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القائمةُ الوطنيّة

لاحظت بعضُ الحيوانات أنها لم تُدرَج ضمن القائمة الوطنية للأنواع الأصلية، فدخلت في كآبة عميقة كان ينتج عنها أحيانًا الموت جوعًا. وهكذا، اختفى عددٌ كبيرٌ من أنواع الطيور، والثدييات والحشرات التي أخذت معها عدة أنواع من النباتات، فبقيت البلاد في وقت قصير تحت رحمة الصحاري.

حينئذ بدأت السلطات في وضع قائمة بأماكن الحجارة وأماكن الرمال، فنتج عن ذلك مسلسلٌ شبيه بالتخلي عن الحياة من قِبَل الأماكن التي لم يتم إدراجها، لدرجة أن البلاد تقلصت إلى أرض رملية صغيرة جدًا تجتاحها مرارًا وتكرارًا رياحٌ عاصفةٌ هوجاء.

في الأخير، بما أنه كان يستحيلُ من خلال أيّ تصنيف التأكدُ من هوية تلك الرياح الغاضبة جدًا لأنها متحركة وغير مستقرة بطبيعتها، فقد أخذت الروح الوطنية تفترُ شيئًا فشيئًا تمامًا مثل أي أثر من آثار الحياة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توابيتٌ صغيرة

أصنعُ توابيت خشبية صغيرة لدفن الأحلام المحطّمة. كلّ من يرغبون في أن ينسوا نهائيًا ما كان ممكنًا، ولم يكونوا يستأجرون خدماتي، أحضُرُ إلى المكان الذي يضربون لي فيه موعدًا مع واحد من توابيتي الصغيرة، المتساوية كلها، المصنوعة من خشب الصنوبر من دون صباغة. كما أن لها نفس المقاسات دائمًا: ٧×٧ سنتيمترا؛ أحبُ رقم سبعة، لأن الجميع يربطونه بالحكمة.

حين أصلُ إلى مكان الدفن، أضعُ التابوت الصغير على الأرض، فيَحكي لي الزبونُ بصوتٍ عالٍ الحلم المحطّم الذي يريدُ دفنهُ، حتى يتسنى لهذا الأخير أن يدخل بكامله في التابوت الصغير؛ بعد ذلك، أضعُ فوقه الغطاء، أغلقه بسبعة مسامير وأدفنه. منذ هذه اللحظة يشعر زبائني بارتياح أكبر، ويتخفّفون من عبءِ الذكريات الثقيل، لدرجة أنه، ذات مرة، بعد الدفن، راح رجلٌ من بلد الوليد يطيرُ سعيدًا مثل عصفور صغير نحو بيته.

في كثير من الأحيان، تظهرُ من التوابيت الصغيرة نباتات غريبة؛ وتبرز من بينها "تريتونا" بسبب طولها وجمالها المتوحش، وهي نبتة من فصيلة الشُّجيرات يمكن أن تبلُغَ عُلوًّا كبيرًا وتساعدُ فواكهُها على التخفيف من آلام بلْعِ الهواءِ.

وضعُ الأقمار

إننا نقومُ بوضعِ الأقمار في بيتك لإنارة لياليك والرّفع من معنوياتك أو معنويات من تحبُ. نوصلُها إلى كلّ أنواع الأماكن: قرى، مدن، صحارٍ أو مناطق جبلية. وفق ما تتطلّبه الحاجة من أحجامٍ، إضاءةٍ وقُوّةٍ في المدى، نقدم كاتالوجًا رائعًا: بدءًا بالمستوى الأول لأولئك الذين يريدون تحفيز أيّ نوعٍ من أنواع الظواهر الروحية الجيّاشة في مجال الإبداع أو الحبّ، حتى المستوى الثاني الذي يُقوّي إلى أقصى حدّ الحيوانَ الكامن فينا، مما ينتجُ عنه تلك الظاهرة المعروفة بتحوُّل الإنسان إلى ذئبٍ.

كما أن كاتالوجنا الخاص بمراحل القمر، يقدّمُ عرضًا واسعًا: قمرٌ جديد، تربيعٌ أول، بدرٌ كامل وتربيعٌ أخير. فيما يتعلق بالأحجام، ستجد لا محالة قياسًا يستجيب لرغباتك، بما أن الشروط التي يجب أن تتوفر في كوكبٍ يضيء أرضًا واسعة ليست هي نفس الشروط التي ينبغي أن تتوفر في قمرٍ خاص بالشُرفة أو بداخل البيت، مُوجّه لينعكس في مرآة الدولاب.

من جهة أخرى، نحن الشركة الوحيدة التي تقدم، علاوة على جودة الخدمات، تغطيةَ الصيانة وحلولًا في حالة العطب في أقلّ من أربع وعشرين ساعة. مثلًا، خلال تجربتنا الطويلة في وضع الأقمار، لاحظنا في كثيرٍ من الأحيان حالات ولادة سابقة لأوانها في أوساط زبوناتنا الحبالى، نظرًا للضغط المرتفع والسرعة في تدفق الدّم الناتجين عن تأثير البدر الكامل. حسنًا، في مثل هذه الحالات، نضع رهن إشارتك، بفضل التأمين الذي يصاحبُ شراء أي نوع من أقمارنا، خدمةً كاملة تشمل سيارة الإسعاف، المستشفى، والأطباء المتخصصين في الولادة.

يعني هذا أنه من خلال تأميننا المدرج مجّانًا في استئجار الأقمار، يحصل الزبون على ضمان تغطية واسعة تشمل كلّ أنواع المخاطر الناجمة عن تأثير الأقمار، مثل حالات الجنون، حالات النزيف المستمر، النمو المفرط للأعشاب، الفيضانات، تحوُّلات بعض الأشخاص إلى ذئاب، الخ...

لا تُفكّر في الأمر كثيرًا، ضع حدًا نهائيًا لياليك الحالكة؛ ضع شيئًا من الحماس في

حياتك مع خدمتنا الخاصة بالأقمار المنزلية، لن تندم على ذلك.

شركة الأقمار محدودة المسؤولية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشياءُ يمكنُ القيامُ بها في سيدي إفني -أفريقيا- (١٩٦٣ ١٩٦٤)

الجنودُ الإسبان الشباب، النّحيفون مثل العصي، بملابسهم المتواضعة من بدلات بهتت ألوانها وجزمات من الكتان، يتصبّبون عرقًا من التعب وهم يكنسون الصحراء مرارًا وتكرارًا. من شروق الشمس إلى غروبها، يمكنُ رؤيةُ أشكالهم الممحوّة وسط الحرّ الخانق، تتقدمُ مسلّحةً بالمكانس. تحت وقع فعلهم المتواصل تنخفضُ الصحراء بشكل حتمي؛ وقريبًا سوف تبتلعهم نهائيًا رمالُ رياح الشرقي الحارقةُ: لن تعود ممكنة رؤيتُهم من أبراج المعسكر، سيختفون بعد أن تبتلعهم الفُوّهة الكبيرة التي يحفرونها بأنفسهم؛ ثم سيأتي بعدهم جنودٌ آخرون لا يقلّون عنهم عرقًا ولا تعبًا، يدفعون بمكانسهم الرمال المراوغة ليغطوا الفُوّهة.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بحث حول الأشباح

في بحر سنة ١٧٨٩، كان جول نوذيي بيطريًا ذائع الصيت في باريس، رغم أنّ شغفهُ الأكبر كان القيام بأبحاث حول الأشباح. كُتِبَ له أن يعيش في قرنٍ شاعَ فيه بكثرة احتقارُ كلّ شكل من أشكال التشبيح، على أساس أن هذه كانت مجرد خدع بصرية ناتجة عن خلل في وظائف الدماغ أو، في بعض الحالات، حيلًا من حيل الماكرين للحصول على منافع مادية من خلال خداع المغفلين.

هكذا، اضطرّ جول نوذيي لإنجاز دراساته سرًا في معظم الأحيان، حتى لا يثير الأقاويل حول رجاحة عقله. وعلاوة على هذا، في تلك السنوات الصعاب من الثورة الفرنسية، كان أدنى شك بخصوص أي تصرّف غريب يمكن اعتباره معاديًا للثورة، ومن ثم، سببًا كي يفقد المرء رأسه تحت المقصلة.

كان أهمُّ اكتشاف قام به نوذيي في عالم التشبيح الناتج عن اختلالات دماغية، يَربط هذه بأصل بعض الإيديولوجيات. خلال تجربته البيطريّة الطويلة، كان قد لاحظ كيف أنّ الحمير تعاني من كوابيس فظيعة خلال النوم، بوتيرة أكثر من الحيوانات الأخرى، بل إن هذا كان يغير تصرفاتها أثناء النهار. بدأ كلّ شيء عندما نادى عليه مفزوعًا جاك موسيه، صاحبُ مزرعة صغيرة شمال باريس، كي يشخّص السلوك الغريب لحمارٍ من حميره، الذي بدأ يتصرف بشكل غريبٍ جدًا منذ مدة طويلة.

عندما وصل نوذيي إلى المزرعة، رأى مدهوشًا كيف كان الحمارُ المعني يمشي بشكل طبيعي جدًا على قائمتيه الخلفيتين، وبدل أن يبقى مع بقية الحيوانات في الحظيرة، كان يتجولُ حول المزرعة مطأطِئ الرأس ساهمًا، يشبكُ قائمتيه الأماميتين على ظهره، تمامًا كما رأى صاحبه، ربّما، يفعلُ ذلك عدة مرات.

بعد ملاحظته والاستماع إلى كلّ ما حكاهُ المزارعُ، استنتج أن ذلك الحمار يعاني ليلًا من كوابيس تُحدثُ تغييرًا خطيرًا في دماغه خلال النوم، لدرجة تجعله يعتقد أنه يشكّل جزءًا من النوع البشري أثناء بقية النهار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قاد بحثُ هذه الحالة الغريبة جول نوذيي إلى استنتاجاتٍ مُهمّة أخرى في مجال الإيديولوجيات وتصرّفات البشر. انطلاقًا من حالة التّغيُّر التي طرأت على وعي الحمار، بدأ يُفكّر كيف أن بعض الأفعال البشرية، وخاصة تلك القاسية منها، يمكن أن تكون ناتجة عن تغيّرات ذهنية ترتبط بأحلام الليل.

هكذا، خلال فترة معينة، حاول معرفة أحلام روبيسبيير؛ فالتصرفات الفظيعة والدموية لحامي الثورة الفرنسية كان تقلقُه بشكل جدّيّ، وكما كان يتخيّلُ، استطاع أن يعرف من خلال شهادات خدَمِه أنّ أحلامه كانت في كثير من الأحيان مسكونة بالأشباح الفظيعة، وربما كانت تلك الرؤى المظلمة تظلُّ كامنة في دماغه خلال النهار، لدرجة أنها تدفعه ليعتقد أنه يعيش محاطًا بوحوش ينبغي أن تقطع رؤوسها دون أدنى تأخير.

بالإضافة إلى هذا، دفعتهُ ملاحظةُ الحمير التي تعاني من مشاكل الهلوسة، إلى التفكير في أنه في معظم الحالات، خلال النوم، تتعرض قدرة الدماغ العصبية لضرر بالغ، لدرجة أن وظيفتها أثناء اليقظة تنحصرُ في منطقة المؤخرة، بحيث أنه، عندما يستيقظُ، يفكّرُ الحمارُ بواسطة المنطقة الخلفية من جسده، أي بواسطة المنطقة التي تتشكل من الرّدفين اللّذين يحيطان بالشّرج. بعد هذا الاكتشاف المذهل، حلّل جول نوذيي إنْ كان ذلك يمكن أن يحدث للأشخاص من أصحاب التصرفات الوحشية بشكل خاص، واستنتج بهذا الخصوص أن التصرفات الفيسيولوجية للحمير كانت تُقلّدُ بكاملها من قِبَل البشر.

لكنه، طبعًا، لم يستطع أن يعرض على أحدٍ أيّ واحدةٍ من كتاباته تلك؛ لأن ذلك ربّما كان سيكلفه حياته. فقط بعد وفاته، سنة ١٧٩٨، وجد أحدُ أحفاده، في صندوق كان في ملك جدّه، دراسة مقارنة كاملة تربط بين تصرُّفات الحمير وتصرُّفات البشر، وبالتحديد تصرُّفاتِ حمارِ جاك موسيه وتصرفات روبيسبيير، تحت عنوان "اضطرابات التصرفات الناتجة عن الأحلام الفظيعة". وقتئذ أيضًا لم تر النور تلك الأوراقُ المرقّمة بعناية والمجلدة. بل فقط في سنة ١٨٢٥، كان أحد أصدقائه المقربين، أرتور مابول، هو من شجّعَ أسرة جول نوذيي على نشر تلك الملاحظات على شكل

كتاب علمي كي يُوزع في الأوساط الطبية.

اليوم، في القرن ٢١، ما زال اكتشافه المُقارن بين الحمير وبني البشر صحيحًا تمامًا؛ رغم أن الأوساط العلمية لم تشكك فعلًا في أي لحظة في مصداقية بحوثه، فإنه لم تُكتشف بعد الطريقةُ التي تسمح بتفادي أن تستمرّ الأحلام الفظيعة في خَلْقِ حالاتِ تفكيرٍ غريبة، بل يمكن أن تنتج عنها إيديولوجيات ضارّة بالإنسانية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصيّةُ عوليس

كانت حياتي بحثًا مستمرًا، خطيرًا في كثير من الأحيان، أمشي دائمًا على حافةِ سكّينٍ. لا أشتكي، بما أن فرحَ اللُّقيات السّعيدة عوّضني عن كلّ شيء، رغم أن خيوطهُ انسلّت جروحًا.

اسمي عوليس، ولدتُ في هذا المطرح قرب مدينة ساو باولو، وأعيش هنا مع أسرتي منذ حوالي خمسين عامًا. عليلًا، الآن، وقد دنت ساعةُ موتي، فإن الإرث الذي أتركهُ لأبنائي هو هذا الجبل من الأزبال وشغف بالبحث لا ينضبُ، آملًا أن يكون هو دليل أيامهم.

CamScanner ب المسوحة ضوئيا

القطارُ الدّوّامةُ

مستخدمُ السّكك الحديدية: كيف لم تنتبه إلى أنك كنت تصعدُ إلى قطار الدّوّامة؟

الرجل ذو النّظارتين والقُبّعة السوداء: طبعًا، انتبهتُ للأمر، لكن بما أن القطارات اليوم صارت تحمل أسماء غريبة جدًا...

مستخدمُ السّكك الحديدية: لكن، خلال الرحلة لا بد أنك لاحظت أنك كنت تسافر في حلقة دائرية، أن المنظر الطبيعي هو نفس المنظر، وأن أسماء المحطات تتكرّرُ مرات ومرات.

الرجل ذو النّظارتين والقُبّعة السوداء: حسنًا، لم أنتبه، أعترف أنني لم أنظر عبر النافذة؛ سافرتُ غارقًا في عملي: أخذتُ ملاحظات من كتاب القِرد النّحوي لأوكتافيو باث، الذي كان عليّ أن أكتب مراجعة حوله في تلك الظهيرة بالضبط.

مستخدمُ السّكك الحديدية: لكن، حين نزلتَ، ألم تُلاحظ أنها نفس المحطة التي صعدت فيها القطار؟

الرجل ذو النّظارتين والقُبّعة السوداء: كلّا، على العكس من ذلك؛ بما أنني خلال الرحلة تمكنتُ من وضع كلّ الخطوط الأولى تقريبًا لنص مراجعة الكتاب، كنتُ مسرورًا؛ وكان كلّ شيء يبدو مختلفًا وأكثر لطفًا.

مستخدمُ السّكك الحديدية: لكن، ووجهتُك؟ حسب ما تقول لي، كان عليك أن تذهب إلى برشلونة لتلتقي أحد الناشرين.

الرجل ذو النّظارتين والقُبّعة السوداء: حسنًا، موضوع برشلونة، لكني من ذلك النوع من الناس الذين يقبلون أنّ الأمور لا تسيرُ كما ينتظرون؛ منذ مدة طويلة وأنا أقبل بكل صلابة وعزم الصُدفةَ بسرّائها أو ضرّائها. وإن كنتُ، كما تقول لي يا سيدي، قد صعدتُ مرتبكًا إلى هذا القطار الدّوامة، فلنتقبّل ذلك كما هو. برشلونة وناشري يمكنهما أن ينتظرا؛ في يوم آخر سوف أستقلُّ قطارًا حقيقيًا وسأتأكّدُ من ذلك قبل أن يكون كذبة. أشكرك على اهتمامك وانشغالك بأمري، ولكني أجد في كلّ هذا

الموضوع شيئًا إيجابيًا جدًا بالنسبة لي. خلال الرحلة استطعتُ القبض على مفاتيح الكتابة، على التعبير المناسب. ربّما من دون هذه الرحلة الدائرية التي لا وجهة لها ما كنتُ أستطيع القيام بذلك. ألا تعتقد ذلك؟

مستخدمُ السكك الحديدية: لا أعرف ما أقول لك... لديك طريقة خاصة جدًا في النظر إلى الأمور يا سيدي. لكن! على أي حال، دوري بصفتي ممثلًا لشركة سكك الشمال أنْ أخبرك بأن رحلتك لم تتم.

يشكرُ الرّجلُ ذو النّظارتين والقُبّعة السوداء مستخدمَ السّكك الحديدية على لطفه ويودّعه. وبينما هو يتجه نحو باب مغادرة المحطة، فكّرَ مرّة أخرى في الدّوامة التي كان أريستوفانيس قد ذكرها بعبارة "بيفبيكس" في عهد قديم جدًا من سنة ٤٤٥ قبل الميلاد في كتابه "الطيور"، كما إن أفلاطون، سنة ٤٢٨ قبل الميلاد، تحدّثَ عنها بعبارة "ستروبيلو" في كتاب "الجمهورية"، واستعملها مثالًا في دراساته حول الشبه بين السّكون والحركة.

أخيرًا، قبل أنْ يسلك بداية شارع الحرية، ابتسم الرّجُلُ ذو النّظارتين والقُبّعة السوداء وهو ينتبه إلى الصُدفة التي جمعت في تلك الظهيرة قراءة كتاب القِرْد النّحْوي لأوكتافيو باث وكتاب الجمهورية لأفلاطون. يتحدثُ النّصّان معًا بالتحديد عن الشبه بين السّكون والحركة. يقول أوكتافيو باث: "إن الثبات دائما مؤقّتٌ، لا يكون ثباتًا كاملًا قطّ، إنه دائمًا لحظةُ تحوُّلٍ".

ربما كانت حقيقةُ هذه الظهيرة -فكّر الرّجُلُ ذو النّظارتين والقُبّعة السوداء- مجرّد استعارة جميلة لتجمع في ذاكرتي بين أفلاطون وأوكتافيو باث، وأنا أصعدُ بالخطأ ذلك القطار اللعبة عَبْرَ القُرون.

استِعراضُ

كانوا جميعًا ينتعلون أحذيةً مُغايرة عن مقاسات أقدامهم. عند بعضهم، كانت الأحذية أصغر من أقدامهم بكثير، ولدى البعض الآخر كانت أكبر منها بكثير. نظرًا لذلك، فإن معظمهم كانوا يعرجون أو يتقدمون بصعوبة كبيرة. في هذه الظروف، كان مضحكًا الاستعراضُ الذي شاركوا فيه احتفالًا بالنصرِ.

الصُوف الذّهبي

كان نذلُ "الصوف الذّهبي" يبدون مثل أزهار ذابلة، يخدمون الزبائن كمن يبكي. كان كلّ شيء في ذلك المقهى التاريخي يبدو غائبًا، كما لو أنّ الموائد والكراسي، والمرايا الضخمة التي تغطي الجدران، بل وحتى وجوه النُدل الحزينة بمعاطفهم البالية كانت، في الحقيقة، مجرّدَ تمثيلٍ للعَدَمِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجنديّ القنّاص

كان الجنديّ القنّاص هو المرشّح الذي يحظى بأحسن تقييم في الاستطلاعات الانتخابية. من دون شك، كانت الفضائل التي تميّزه، من مثابرة ووضوح في الأهداف، هي ما يجعله يُمثّلُ لدى المواطنين، السياسي المناسب لرئاسةِ حكومة الأمّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشباحُ الماضي

في الآونة الأخيرة، فقدت السياسة كثيرًا من سمعتها. وحتى لا نذهب بعيدًا، قبل بضعة أيام تابعنا على شاشة التلفزة أداء اليمين الجليل الذي أدّاهُ ليشغل منصب وزير الاقتصاد ذلك الشفاخ المحترف المشهور فرانك كامبيل، الذي تحوّل اليوم إلى مواطن محترم. كان يقضي عقوبة بالسجن المؤبد في واحد من أكثر سجون الدولة أمانًا؛ ترك وراءه سلسلة لا تنتهي من جرائم القتل.

لكن، مع رياح الشعبوية المنادية بالعفو والصفح عما مضى، قامت الحكومة بالعفو عنه رفقة مجموعة من المجرمين وقُطّاع الطرق، ففتحت لهم أبواب السجون وسلمتهم الحقائب الوزارية في الوقت ذاته. وها نحن نرى الكثيرين منهم وقد تحوّلوا تمامًا، غاية في الجدّية، يرتدون بدلات وربطات عنق، يحددون مصيرنا. هذا، طبعًا، بعد متابعة دروس مكثفة في التكوين السياسي، فأصبح جلُّهم اليوم يعرف عن ظهر قلب كتاب السياسة لأرسطو، بما أنهم اضطروا لقراءته عدة مرات.

من وظيفتهم الجديدة كوزراء، هم واعون بأن أشكال اللغة تبقى مُنوّمًا قويًا
Telegram:@mbooks90
لإقناع الشعب. طبعًا، أحيانًا، يضعُ لهم جميعًا الماضي الخبيث بعض المقالب المؤذية. مثلًا، أثناء جلسات الاستماع، هناك فئات اجتماعية تخشاهم بشكل خاص، مثل فئة المعطلين الكثيرة العدد، الذين يرفضون أن يغلق الوزير المكلف بالقطاع البابَ عندما يتحدثون معه داخل مكتبه. فقد بدأت تروج شائعات عن حالات اختفاء غريبة، يربطها البعض بوزير الاقتصاد وآخرون بوزير الشغل، حسب الظروف والملابسات.

المُترجمُ والسُلحفاة

على خشبة المسرح، يظهرُ المترجمُ في الخلفية مرتديًا بدلةً رمادية داكنة ويضعُ قُبّعة من اللّبد زرقاء فضّية؛ في المقدمة هناك سلحفاةُ المدينة، التي تختلفُ، مورفولوجيا وأيديولوجيًا، اختلافًا كبيرًا عن بنات سُلالتها من سلاحِف البادية. يظلُّ كلاهُما في صمتٍ مطلق، لكن حين يبدأ دوزُ الرّشاشات المائية يقفزان من كرسيّيهما ويهربان نحو نقطة غير محدّدة في الأفق. تسيرُ السلحفاةُ ببطءٍ أكبر من المُترجم، لكنها تهربُ بدورها. هذا المشهد الذي يتكرّرُ حدّ الغثيان في المسرح الوطني أصابَ، في النهاية، بضجرٍ خطيرٍ الجمهورَ الذي لا يفهمُ لماذا يجب أن يخسر ماله ليشاهد مرات ومرات هذا العمل القصير من المسرح الإنجليزي، الذي ظلّ يُقدّم عروضًا مسرحية دون توقف في المدينة منذ أربعة عقود.

إن الحياة الثقافية تتمحوزُ حول هذا النشاط المسرحي الوحيد، الذي أصبح يشكل عبئًا حقيقيًا على المشاهدين، المجبرين وفق ما هو صحيح سياسيًا أن يحضروا، مرّة واحدة في الأسبوع على الأقل، لمتابعة عرض هذه المسرحية الإنجليزية التي يُجهلُ مؤلّفها.

ما الذي تُمثّله السلحفاةُ، ما الذي يُمثّله المُترجمُ، وماذا تمثل الرشّاشاتُ المائية، لا أحد يبدو أنه يعرف ذلك. لكن السلحفاة حقيقية، والمترجمُ أيضًا؛ كلاهُما، عندما لا يُمثّلان، يعيشان في مذبحٍ صغير مُدمجٍ في الأسوار التي تحيط بالكاتدرائية. حين يمرُّ الناس بالقرب منهما يُحوّلون أنظارهم إلى جهة أخرى، خوفًا من نظراتهما التي اشتهرت بأنها تُحجّرُ روح كلّ من لا يؤمنون بمنافعِ التّكرار، كلّ أولئك الذين يمقتون نظامَ العادةِ المُقدّس.

هندسةٌ معماريّة معاصرة

أمام عجزهم عن القضاء على آفة الصراصير التي اجتاحت المدينة، انتقلَ أعضاءُ الحكومة البلدية من التظاهر بعدم رؤية المشكلة إلى إخبار الساكنة مباشرة، بواسطة حملات إشهارية مُكلّفة، بالمزايا المتعدد للتعايش مع هذا النوع من الحشرات. لهذا الغرض، فإنهم يدعمون أي نوع من حلقات التكوين؛ وبهذه الطريقة، وبعد فترة من الدروس المكثّفة، يمكن لأي مواطنٍ تلقّى تكوينًا في الصراصير بفضل المال العام أن يتحدث عنها بسهولة في أي مكان. هكذا، يمكنه أن يجيب بكل عفوية أي شخص يسأله كما يلي: ظهرت الصراصير قبل الديناصورات، تتمتّعُ بقدرة كبيرة على التأقلم مع وسط بيئي مُتغيّر، ويسمح لها هذا النجاح الذي لا يقبل الجدل بأن تستعمر أيّ مؤطنٍ ومكان في العالم. وبما أنها تتأقلم خصوصا في النجاة بنجاح في المجالات البشرية، فإنها تعتبرُ صاحبة خبرة في الكشف عن أنواع المناخ المحلية التي تساعد على تناسلها، تطورها ونجاتها في بيئة معادية.

أمام هذا الوضع، وفي إطار حزمة من التدابير لمواجهة مشكلة الاشمئزاز الذي ما فتئت تثيرهُ الصراصير في الكائن البشري، قررت السلطات أيضًا أن تراهن على نوع جديد من الهندسة المعمارية الرسمية التي تُذكّرُ بشكل هذه الحشرات المُدرّعة، على أساس أن تكون نوعًا من التربية البصرية على تقبّلها اجتماعيًا. ولهذا الغرض، قام فريقٌ من المهندسين المعماريّين بتصميم البناية الجديدة التي ستحتضن مقر الحكومة البلدية في العاصمة. هذا المشروع، الذي يعتمد هندسة معمارية معاصرة ذات خطوط حيوانية الشكل، يُذكّرُ كلّ شيء فيه بصرصورٍ؛ أعني تلك الحشرة ذات الجناح المستقيم، الليلية الراكضة، التي يبلغ طولها حوالي ثلاثة سنتيمترات، بجسمها الكئيب، المسطح، لونها الأسود من أعلى والمائل إلى الأحمر من تحت، تتوفر الأنثى على جناحين وغمدين تحفظهما فيهما، لها لواقطُ خيطية الشكل، ستة أرجل شبه متساوية وبطن ينتهي بحافتين مُتحرّكتين.

سوف تكون هذه البناية من الحديد والزجاج بعُلوّ ستة طوابق، وستشغلُ قطعة أرضية تبلغ مساحتها ألفي متر مربع في قلب وسط المدينة. وتحتضن قاعات البلدية

في هذه الأيام عرض تصاميم، صور مركّبة ونماذج مصغرة للمشروع. وقد مرّ عبر هذه القاعات أكثر من ٤٠٠٠٠ شخص، وهو المعطى الذي دفع السلطات لتفكر في أن هذا العرض لم يثر اهتماما لساكنه فحسب، بل إن التوافق على تقبّل طريقة جديدة في العيش قد بدأ يكبر يومًا عن يوم. وكما قال مؤخّرًا دكتور علم النفس والبيطرة المقارنة، رامون مايئتيفيا، في كتابه "الإمكانية الروحية في عالم الحيوان"، فإن الاشمئزاز، بوصفه ظاهرة نفسيّة، يمكن معالجته واستئصاله بكل سهولة عن طريق علاج مناسب من التصاميم التربويّة. بل إنه يمكن ملاحظة كيف أنه في نهاية مسلسل الشفاء، عن طريق تحوّل عجيب، يرى المريض نفسه وقد تحوّل، بشكل طبيعي لا يصدق، إلى موضوع اشمئزازه السابق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شُرفاتٌ مُزيّنة

كلّ عامٍ، تزامُنًا مع الاحتفال بالعيد الوطني، يوضعُ المُنشقُّون في طابور بشارع الحرية، وأمام أنظار الجمهور الذي اعتاد متابعة هذا النوع من المَشاهد بين ترقُّبٍ وذُعرٍ، يقوم المُختصُّ المُسلّح بخازوق من السنديان فيقطع رؤوسهم بضربة حادة. يقوم نفس الشخص دائمًا بإنجاز هذه المهمة؛ ويتعلّق الأمر عمومًا بشخص متمرّس جدًا على هذه الأنواع من أشكال التعذيب، وهي المهمة التي استعدّ لها بكثافة خلال السنة بكاملها.

بعد أن تتطاير الرؤوس في الهواء، تُجمع وتوضعُ مغسولة ومُسرّحة الشّعر في النوافذ والشُّرفات التي سيمر من قربها، عمّا قليلٍ بعد ذلك، استعراضُ الوطنيّين المُتحمسين الذين سيُشرّفون الراية الوطنية في الساحة الكبرى، كما دأبوا على ذلك كلّ سنة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحاربان

في لوحة الفنان ماتشائغ يظهرُ محاربان صينيّان من سلالة مينغ فوق جوادين يعدوان. من يمشي في الأمام، غيرُ مسلّح، مستندًا إلى شعر جواده الأبيض، أصيب بجرح قاتل. من يمشي في الخلف، ممتطيًا جوادًا أسود، هو ظلُّهُ، يشبهُ تمامًا الفارس الأول في كلّ شيء، لكنه ظلُّ ربحَ المعركة، يركضُ فوق جواده مزهوًّا يحمل قوسًا وكنانة مليئة بالسهام. قبض عليهما الفنان بريشته وهما يركضان فوق الجوادين، بالضبط عندما كانا في الهواء، كما لو أنّهما معًا، الجسدُ والظّلُّ، كانا يطفوان في نفس المستوى من الخفّة المستثنى من المأساة، بالكاد يلمسان الأرض القاحلة التي يبدو أن قوائم الجوادين تطير فوقها.

كل شيء في المشهد يعكسُ خفّة عالية وسط منظر طبيعي غارق في الضباب، والذي بالكاد تظهر فيه غير واضحةٍ تمامًا سلسلةُ جبال في الخلفية. من أجل إنجاز هذه اللوحة، استعملَ الرسّام، المعروف بتقشف أدواته ودقة لوحاته، ثلاثة ألوان صباغيّة لا غير: ما يعرف باسم "ظلّ العظم"، الذي يُحضّر بمسحوق العظام المحروقة؛ "ظلُّ البندقية" الذي يُحضّر لونه القاتم من فحم ترابي، و "ظلُّ العجوز"، الداكن الألوان، الخشن، والذي يُحضّر انطلاقًا من الصلصال المائل إلى السواد.

رسم ماتشائغ هذه اللوحة الموسومة بعنوان "المحاربان" سنة ١٦١٨، في مكان ما من إقليم شانشي قرب النهر الأصفر، في أعماق ذلك البلد الذي أمضى فيه كلّ أيام حياته، من عُمقِ حياة الترحال، التي دفعته ليجوب كلّ المنطقة مثل مسافر تائه. دائمًا خفيف المتاع، يحملُ أدوات رسمه القليلة على ظهره، والتي دأب على استعمالها على أقمشة كان يُحضّرها بنفسه من ملابس قديمة يتخلى عنها الناس في ضواحي المدن والقرى. لا يُعرف الشيء الكثير عن هذا الفنان الغامض الذي خلّف أعمالًا رائعة، تعجُّ بالرموز.

يُعتقد أن الشاعر فريديريش شيلينغ استطاع أن يتأمّل لأول مرة لوحة "المحاربان" للفنان ماتشائغ سنة ١٨٢٠، في متحف لودفيغ بكولونيا، فخلّفت لديه انطباعًا قويًا بسبب رمزيتها العميقة عن الهُوّية التي استطاع الفنّانُ الصيني أن يجسدها ببراعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عالية. لدرجة أنه عاد مرات متكررة إلى المتحف ليجلس أمام اللوحة ودفترٌ صغير فوق ركبتيه، كان يدوّن فيه بعض الملاحظات وهو في حالة انتشاء. بعد عدة أشهر، حين عاد إلى نافبولي، بدأ كتابة عمله "فارسان وسط الضباب"، انطلاقًا من العالم الغنيّ بالصور والمفاهيم الذي أوحت له به لوحةُ "المحاربان" للفنان ماتشائغ، كما يعكس هو ذلك بنفسه في مقدمة الطبعة الأولى التي رأت النور سنة ١٨٣٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسرحٌ في مانهاتن

المنظر على خشبة المسرح يُجسّد داخلَ غرفةٍ في أحد الفنادق الرخيصة، فيها رجُلين وكلْب. كلا الرّجُلين، وهما ما يزالان شابّين، يجلسان قرب طاولة صغيرة ويبدوان متوتّرين. الكلبُ مضطرب بدوره ولا يكفُّ عن اللّف والدّوران من حولهما، دون أن ينعم بالهدوء.

- اترُك الكلب ليخرج.

- كلاّ، من دون الكلب لن نتفاهم.

- إننا لا نتفاهمُ أيضًا وهو معنا هنا بالداخل.

- نعم، لكننا يمكنُ أن نفكّر أنه هو السبب في أننا لا نتفاهم.

- لا أفهمُك.

- هذا ليس أمرًا جديدًا؛ إنك لا تفهم أبدًا ما أقوله لك.

- هذا ليس صحيحًا؛ أنت تعرف أن الكلب يجعلني متوتّرًا. من دونه يمكن أن تكون الأمور أحسن بيننا.

- لا أعتقدُ ذلك.

في هذه اللحظة يدنو الكلبُ من النافذة المغلقة ويشرعُ في النباح.

- أرأيتَ؟ إنه يريد أن يخرج؛ دعه ينصرف، من فضلك.

- كلا، إنه لا يريد أن يذهب؛ أنت من تجعله متوتّرًا.

- أنا من يجعله متوتّرًا؟

- هل تريد أن تجعلني أعتقد أن الكلب يفهم لغتنا؟

- ربّما يكون الأمر كذلك؛ ربّما يُدرك أنه لا يروق لك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ليس أنه لا يروق لي، ولكني أفضل أن أنعم بالهدوء؛ أريد أن نبقى وحدنا معًا من دونه وهو يتحرك قلقا من مكان إلى آخر.

- لقد تحدثنا في هذا الأمر عدة مرات من قبل: سيبقى الكلب دائمًا معنا، وما عليك سوى أن تتعوّد على ذلك.

- ربّما إنّ ما يحدث هو أنك لا تستطيع أن تبقى من دونه، وأنك تخشى أن تبقى معي على انفراد.

- دع هذا الأمر نهائيًا يا إيريك، لا تستمر في هذا الاتجاه.

- حسنًا.

الآن يجلس الكلب عند قدمي توم، فينهض إيريك، ينظرُ عبر النافذة ويتظاهر بأنه ينبحُ كما فعلَ الكلبُ من قبل.

هنا ينتهي الفصل الأول. يُنزَلُ الستار، وبعد ذلك هناك فترة راحة قصيرة يستغلها المتفرّجون ليخرجوا ويدخنوا في ممرات المسرح وليعلّقوا على أداء الممثلين.

- من أعجبني أكثر هو الكلبُ. قال متفرجٌ ذو هيئة متأنقة، يرتدي ملابس سوداء ويضع ربطة عنق ذات مربعات خضراء وصفراء.

- نعم، يبدو مرتاحًا في دوره. يجيبه متفرّج ذو شعر قُصَّ قصيرًا جدًا وصُبغ بلون أخضر.

- عكس ذلك، من يؤدي دور توم وازين لا أراه مركزًا على دوره. تقول الآن امرأة شابة، ترتدي بكل أناقة سارِيًا برتقالي اللون على الطريقة الهندية.

- نعم، كان أداؤه أحسن عندما كان يلعب دور الكلب في مسرحية "شايٌ في بيت آل مونرو". هناك، أتقن أداءه.

في هذه اللحظة قُرعت ثلاثة أجراس في إشارة إلى أن الفصل الثاني سيبدأ قريبًا. يدخلون جميعًا إلى القاعة ويُرفعُ الستار، لكن، أمام دهشة الجمهور، يتعلق الأمر بمسرحية مختلفة تمامًا عن سابقتها. فوق خشبة المسرح، داخل محل جزارة، هناك

جندي يتحدث مع صاحبة المحل، التي تحاول لحظتها أن تشقّ رأس بقرةٍ بضربات مدية فوق المنضدة. تُسمع همسات في القاعة المليئة بالكراسي، والناس يتململون في مقاعدهم.

- لكن، ما هذا؟

- إنها خدعة سخيفة!

يقوم متفرجٌ في الصف رقم عشرين، يبدو كأنه يعلم ما يجري، ويحاول أن يهدئ الأجواء.

- يتعلق الأمر بمسرح حديث -يقول- وهذا النوع من الأمور يسمى تقنيات الإدهاش في التمثيل المسرحي: يبدأ العرض بطريقة ما والرّبُّ وحده يعرف كيف ينتهي. بل إنني تابعتُ مرة عرضًا في مسرحٍ مهمٍ من مسارح برلين لم يبدأ حتى، تصوروا ذلك.

- لكن، ماذا حدث حينئذ؟ سألتهُ حائرةً سيدةٌ كانت تجلس على يساره.

- لا شيء، غادرنا جميعًا المسرح. حسنا، من يحضرُ منّا لمتابعة العروض يعرف ما ينتظره؛ يتعلق الأمر بمسرحٍ تجريبي. إن كنتم قد انتبهتم جيّدًا، هذا ما تقوله اللافتة التي وضعت عند باب البناية.

في هذه اللحظة، انتشرت في كلّ قاعةِ الكراسي همهمات من الغضب العام؛ يبدو أنه لا أحد كان يولي انتباها للمسرحية التي تعرض على خشبة المسرح. أحد الممثلين، من يؤدي دور الجندي، يبدو أنه غاضب من غياب الانتباه، يخرجُ بسرعة من المحل ويختفي خلف الستائر السميكة، ليخرُج بعد بضعة دقائق وهو يشد بسلسلة كلبَ المسرحية السابقة؛ يمشيان معًا حتى يبلغا حافة خشبة المسرح، وبأمر من الجندي، يبدأ الكلب في النباح متوترًا نحو الجمهور.

لحظتها، يبدأ الناس في مغادرة القاعة. بينما كان البعض يشتمون الجندي، كان البعض الآخر يستفزون الكلب وهم يقلدون نباحه.

أثناء ذلك، ظلت امرأةُ محلّ الجزارة رابطةَ الجأش تنزلُ بضربات المدية على رأس

البقرة. ومع كلّ ضربة، كان وجهها يتغير، تلطّخه شظايا عظامٍ، جلدٍ ودمٍ تتطاير من رأس البقرة الذي يأبى أن ينشقّ إلى قسمين. بينما كان هناك مذياع، يوجد في مكان ما على خشبة المسرح، ينقل وقائع مقابلة في كرة القدم... مما لا شك فيه أن العرض مستمر، لكن اللغز هو كيف ذلك، بما أنه حتى أنا، الزاوية، غادرتُ المسرح على عجل يلاحقُني الكلبُ الغاضبُ، الذي قفز من على خشبة المسرح نحو قاعة الكراسي، وراح يطرد بطرق فظّة ما بقي منا من حاضرين جالسين في مقاعدهم. الآن، صارت القاعةُ فارغة ورحنا نحن بعض عشاق المسرح نركضُ وسط المدينة مذعورين أمام كلبٍ غريب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مثويةُ المذبح البلدي

سيّد غايثكا أوريبستوندو المحترم:

قبل أن أعرض عليكم سبب رسالتي هذه، اسمحوا أن أقدم لكم ملخّصًا يذكرُ بمسار حياتي في السنوات الأخيرة. كنتُ دائمًا أعتبر الدراسة أمرا ضروريًا لتكوين الفكر، بالإضافة إلى ما قدمته لي القراءة من متعة لا تتوقف، فكنت طوال حياتي قارئًا نهمًا. لذلك، عندما وجدتُ نفسي عاطلًا، مثل العديد من الآخرين، لم أتردد لحظة، وقررتُ أن أستمر في تكوين ذاتي حتى أجد عملًا آخر. كانت حياتي المهنية كأستاذ للفلسفة في الجامعة قد انتهت. أدى تقليص الميزانية الصعب الذي اتخذته الحكومة في مجال التعليم إلى إغلاق عدد كبير من جامعات الدولة، وعلى إثر ذلك بقيت القليل منها، تقع كلها في المركز، ولا يمكن أن يلجها سوى أبناء الطبقات الميسورة. فالأزمة الاقتصادية التي انتشرت في كلّ أنحاء أوروبا ضربت إسبانيا بضراوة استثنائية.

لم يعد أي شيء كما كان من قبل. لكن، بما أنه ليس من عادتي أن أستسلم أمام الشدائد، استعلمتُ عن القطاعات التي تقدم أكبر عروض للتشغيل. وسرعان ما علمتُ بوجود عملٍ قلّما يتقدمُ له عادة المرشحون: "عاملُ مذبح". خلال سنة بكاملها، كرّستُ وقتي أحضّرُ لامتحان ولوج واحد من المناصب التي يدعو إليها المذبح البلدي ويُعلنُ عنها في الجريدة الرسمية. قرأتُ ما استطعت من كتُبٍ حول تشريح الحيوان، تقنيات الجزارة، السّلخ، نزع العظام، والتقطيع، كما حفظتُ عن ظهر قلب كلّ أسماء ووظائف السكاكين والأدوات المستعملة سواء في المذبحة أو المجزرة.

اليوم أستطيع أن أقول إن كلّ ذلك المجهود كان يستحق العناء، وبعد الامتحان حصلتُ على عمل في واحدة من التخصصات المعروضة لأشتغل عاملَ مذبح في مدينتي، وهو التخصص الذي يلمع جديدًا في الجيب الأعلى الأيسر من ردائي الأبيض: "مُعِدُ فضلات الذبيحة". تصلُ إلى يديّ كلّ يوم أجنحةٌ منتوفة، حواصلُ، أرجلٌ، أعناقٌ، رؤوس، بطونٌ، أمعاءٌ... أرتّبُها وأضعها في أماكن مختلفة داخل شريط مسترسل تنقضي أمامه سحابةُ يوم عملي. وعلى عكس ما يمكن التفكير فيه، تبعثُ

رؤيةُ كلّ هذا طمأنينةً كبيرة في نفسي، ورغم أن معظم زملائي في المذبح يرون أن كلّ هذا ليس سوى مادة صالحة للاستعمال انطلاقًا من شيء ساقط، ربّما يكون طعامًا للفئات المحرومة، فإنه ينتصب أمامي حروفًا أبجدية للتأمل، كما لو أنني أقرأ "النشيد الروحي" بذاته، للشاعر سان خوان دي لا كروث(3). ومن نافلة القول أنه، في كثير من الأحيان، أشعرُ أثناء عملي بحالات انخطاف روحية قوية قريبة من الاسترفاع. وهي اللحظات التي يجب أن أمارس فيها رقابة صارمة على ذهني، حتى لا أحلّقَ مثل طائرٍ صغير فوق الشريط الناقل، مع ما قد يثيره ذلك من هلع لدى زملائي والمجازفة بتعريض بقائي في المنصب للخطر.

عليكم أن تفهموا يا سيدي، هذه اللذات، هذ الدهشة المستمرة، هذا الافتخار بإنجاز كلّ ما يُنتظر مني. أنا عامل سعيد في المذبح، أعي أن الحظ حالفني، كما لو أنني فزتُ بجائزة اليانصيب الكبرى، مع الحظ الكبير في الاستمتاع بعمل يحتقره الآخرون. وعلاوة على هذا، فإن الرؤية اليومية لأحشاء الذبيحة تفتحُ أمامي إمكانية تأمّلٍ جماليّ فريد. فأمام عينيّ تتوالى كلُّ الأنواع من بقايا الحيوانات، والتي تشكل ألوانُها، أشكالُها وأنسجتُها لوحاتٍ رائعة من صنف لوحات الطبيعة الصامتة التي تستحق أن تشكل جزءًا من أحسن متاحف العالم.

لقد كان الفن والتفكير حاضرين على الدوام في تلك الفضلات اللامعة، بينما أنا، البائس المسكين، كنتُ أبحث عن أجوبةٍ في كتب الفن والفلسفة؛ واليوم أجد في هذا الشريط الناقل الذي لا يتوقف أبدًا، في هذه المادة الصالحة للاستعمال من شيء ساقط، كلّ ما كنتُ أرغب في معرفته طوال حياتي.

أودُّ أن أقترح على رؤسائي، إلى جانب اسم "المذبح البلدي"، الذي يظهر على لافتة كبيرة في المدخل، أن يضيفوا أيضًا، فيما يشبه عنوانًا فرعيًا، عبارة "فضاء للتأمل الميتافيزيقي"، لكنني لا أجرؤ على ذلك. إن هذا الأمر يشكل جزءًا من نوع آخر من الأحلام التي لا تأثير لشخصي المتواضع عليها.

لذلك أتوجه إليكم يا سيدي، واثقًا من أنه من موقعكم بوصفك مديرًا لقسم الثقافة في البلدية، يمكنكم أن ترفعوا إلى سعادة العمدة إمكانية إدراج هذا العنوان الفرعي

بمناسبة تخليد منوية المذبح البلدي في السنة القادمة. وسأكون ممتنًا لكم بذلك أيّما امتنان.

وفي انتظار أخباركم، تقبلوا مني أصدق عبارات التحية والتقدير.

إنييغو لاسكوراين

مُعدُّ فضلات الذبيحة،

المذبح البلدي.

---

(3) شاعر صوفي إسباني من القرن السادس عشر. (المترجم)

ميتروبوليس

غالبًا ما يضطرُّ المهندسون المعماريّون للسكوت عمّا يعثرون عليه وهم يقلّبون التراب أثناء وضع أسس بناية جديدة، وعليهم أن يفعلوا ذلك من أجل إنجاز أشغال ناطحات السحاب تلك، التي رسموها بكل حُبّ وعناية على التصاميم، والتي تلمعُ في سماء المدن الكبيرة الحديثة كأنها مجوهرات طويلة من الحديدِ والزُّجاج.

أحيانًا، مع أول دفعات الجرافات، تظهرُ اكتشافات مواقع أثرية، بقايا حيوانات ضخمة غريبة لم يسبق لأحد أن رآها، أو مداخلُ أنفاق غامضة، مثل ذلك النفق الذي ظهر في قطعة أرضية للبناء في برشلونة سنة ١٩٧٩، والذي كان يقطع كلّ المدينة ليتوغل في البحر خارج أيّ منطقٍ.

كل هذا يجب على المهندسين المعماريين أن يحتفظوا به في سرٍّ دفين. ما الفائدة من الإعلان عنه في كلّ الاتجاهات؟ من ذا الذي يستطيع بعد ذلك أن يقتني مسكنًا أو مكتبًا في بناية تحتها نفقٌ غامض؟ من ذا الذي قد يسكن بيتًا فوق بقايا حيوانات ضخمة غير معروفة لدى الأوساط العملية؟ من ذا الذي قد ينام له جفنٌ وهو يرقد فوق رمادِ بُركان؟

إن الحضارة لن تكون ممكنة من دون هذا النوع من الأسرار، والمهندسون المعماريون يعرفون ذلك. لكن، يحدث أحيانًا أن يقوم أحدهم، كما في الحالة المطروحة أمامنا، بالتحقيق ضد التيار، من دون ضمير، تدفعُ أجرَه مصالحُ غامضة، فيكتشفُ في أرشيف الهندسة المعمارية المعاصرة منجمًا حقيقيًا، مجموعة خرافيّة من خرائط تحت أرضيّةِ مُدُننا الكبرى، يبدو أمامها عالَمُ أليس في بلاد العجائب شيئًا تافهًا.

ما العمل في مثل هذه الحالة؟ هل المجتمع مستعد لتقبّل الخرافة؟ الجواب هو لا. يجب على القوانين أن تواجه هذا النوع من التحقيقات غير العقلانية التي لا تعمل سوى على تعريض الأسس التي يقوم عليها أمننا للخطر. من ذا الذي يهمّه معرفةُ ما تخبئه أُسس مُدننا؟ هل يؤدي ترهيب الساكنة بهذا الشكل إلى أي نتيجة؟ إذا ما أُخذ

في الحسبان، كذلك، بأن قطاع العقار هو سفينة الاقتصاد في بلادنا، وعليه تعتمد رفاهية أكثر من أربعين مليون شخص، فإن تحقيقًا من هذا النوع ينبغي أن يُعدّ جريمة مكتملة الأركان ضدّ الدولة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مراحيض الكاتدرائية

إن تهاون البلدية في تنظيف المراحيض العمومية، الواقعة تحت الكاتدرائية، قد بلغ مداه؛ فالنظافة يرثى لها، والمراحيض باتت من دون إنارة تقريبا، إلا من مصباح وحيد معلق بهشاشة في سقف مقشر تضطرّ نحن مستعملو المراحيض العمومية إلى المشي بالتحسس عبر ممرّ ضيق، نتعثر مرات، وفي مرّات أخرى يصطدم بعضنا ببعض، مما ينتج عنه جدالات وشكاوى من كل الأنواع، تحوّل مكانًا يفترض أنه للخصوصية والتأمل، إلى جحرٍ للصياح والشتم، حيث ما إن تقفل حتى يمكن، ليس فقط أن تسقط وتُصاب بضربة فوق الأرضية القذرة المغطاة ببرك من البول، بل يمكن أن تفقد محفظة نقودك على يد معتوه يستغل الظروف ليفتني بممارسة النشل.

في هذه الظروف الهشّة، يمكن أن نفهم لماذا أقدم مختلف مستخدمي البلدية الذين يعملون مراقبين، الواحد تلو الآخر، على طلب إجازة مرضية، إما بسبب الاكتئاب أو أي مرض معد، وأمام صعوبة ملء الوظائف التي تركها هؤلاء فارغة، فكرت البلدية في توظيف أشخاص متعودين على ظروف العمل القاسية، مثل الباسيريتازا(4). وهكذا، نظرا للظروف، قبل أكثر من واحد العمل عن طيب خاطر، لكنه جاء، طبعًا، رفقة بعض حيواناته التي وجد صعوبة في أن يتركها وحدها، أو حرة، تجول في المراعي.

في الآونة الأخيرة، رغم أن حالة النظافة والأمن لم تتحسن، فقد تقلص خطر السقوط بعد أن غُطيت أرضية المراحيض بالتبن، فأخفى ذلك تراكُم برك البول المتكرر، كما أخفى إفرازات الماعز والغنم والثيران. لكن ظروف الإنارة ساءت أكثر؛ أصبح كلّ شيء اليوم غارقًا في الظلام بعد أن ذاب المصباح الوحيد الموجود ولم يتم تعويضه. مما يعني أن الجدالات، والصيحات، والسرقات، بل وحتى الاعتداءات الجنسية الممكنة مازالت تشكل خطرًا حقيقيًا يتحملهُ المستخدِم عندما يستعمل المراحيض العمومية، لكن، على الأقل، منذ أن تكلف رجال الباسيريتازا بحراستها، بدؤوا يمارسون شيئا من السلطة؛ مدججين بعصيّ طويلة لا يترددون، إن دعت الضرورة إلى ذلك، في أن يضربوا ضربًا مبرّحًا كلّ من يجرؤ على الإخلال بالأمن

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

والنظام اللذين ينبغي أن يُصانا ولو في محيط تغلب عليه القذارة.

من جهة أخرى، بدأ المواطنون يستأنسون بما يشبه الحظيرة التي ينبغي أن يتفادوا فيها ليس اللصوص والمهووسين فحسب، بل أيضًا الماعز، الثيران أو الحمير ليتقدموا وسط ظلام يفوح برائحة الزوث. ولسبب غريب، يصرّون على ألا يتخلوا عن استعمال هذا المرفق البلدي، رغم أنه تحول أكثر من مرة إلى وكر للتعفنات، بل وقعت حالات اختفاء غريبة وسط المستعملين، مع ما يعرفه الجميع من لا مبالاة، ليس فقط الباسيريتازا الذين يعترفون أن عملهم الصعب يتجاوزهم، بل أيضًا مختلف رجال الشرطة المسؤولون عن إجراء التحقيق.

ومع ذلك، هناك بعض كُتّاب الأعمدة في الصحافة المحلية الذين، رغم كلّ العقبات، يقدمون حججًا إثنوغرافية دامغة من أجل مواصلة الحفاظ على الظروف الحالية في مراحيض الكاتدرائية، ويدّعون أنها تشكل فرصة رائعة لتقريب العالم القروي وعاداته من المواطنين، الذين ابتعدوا في كثير من الأحيان عن ذاكرة أجدادهم، والكثير منهم يجهلون كلّ شيء تقريبًا عن عالم بيوت الأرياف، عن الزراعة وعن الأنواع المحلية من مواشي البلاد.

والحقيقة أنه، من دون شك، بسبب البعد الوطني الذي اكتساه الجدل بين المدافعين والمعارضين لاستعمال الحظائر كنموذج للمرفق العمومي، فقد عرفت السياحة الداخلية نموًا ملحوظًا. أضحت متواصلةً فيه تلك الزياراتُ التي يقوم سياح متحمسون يصطفون في طوابير طويلة لينزلوا إلى مراحيض الكاتدرائية، بنفس الفضول المُتقد الذي قد يشعرون به وهم على وشك أن يتأملوا لأول مرة سراديب الموت الرومانية.

---

(4) تعني كلمة "باسيريتازا" في اللغة الباسكية البدوي الذي يعيش في بيت ريفي، يزرع الأرض ويمكن أن يربي الماشية أيضًا.

ربيعٌ

إليكم حكاية ربيعٍ أكثر بريقًا من أيّ ربيعٍ سابق. أكوامٌ من الورق تسدُّ الأبواب، أصواتٌ مفرطة، ثرثرةٌ، انتشاءُ ورقٍ مُعجّن. تجلياتٌ لا متناهية للتفاهة، تكرارُ الرداءة التي سيطرت على الشوارع. أيامُنا التي ابتلعها ضياع المعنى المُلحّ مثل عرض في السيرك. لكن هذا هو إرثنا؛ وبذلك نكون قد ذكرنا المستقبل. من فرطِ شكاوينا وعدم ثقتنا، تحولنا بدورنا إلى جلادين بسرعة قصوى. وها نحن هنا: متدرّبون صغار عند جزّار، منحطّون وغامضون، نستمع مرة أخرى إلى أكاذيب المرشحين، النّتنين الذين لا شكل لهم. لا يمكن تمييز رأس الكثير منهم، بما أن هذا الجزء من الجسد المعفى من الروح يشبه لديهم قطعة أحشاء تنبض محمرّة، غالبًا ما تكون لزجة يتصاعد بخارها.

أصواتُ الصَباح

كلّ صباح، بدقّة مواعيد عاصفةٍ لا تشبعُ، تنفجرُ أسفل بيتنا صيحاتُ تلك المرأة الغاضبة على ابنيها الصغيرين اللذين نهضا للتو من السرير، تلك الجارة الغريبة غير الراضية على الدوام، النحيفة والقاتمة مثل خطّ ظِلٍّ ضدّ الجميع.

حينئذٍ ترتجفُ الخزاناتُ في مطبخ بيتنا فوق الألواح الخشبية المرهوبة للأرضية، التي تبدو كأنها تئنُّ وهي تنقلُ تلك الضّجة التي تُجلجلُ الصحون، والكؤوس، والأكواب، والفناجين، والقوارير، والطناجر، والمقالي وأغطية الأواني، كأنها رقصةٌ لا يمكن إيقافها على شفا هاوية.

الشتائمُ، صفق الأبواب، وبكاء الطفلين اليائس... بدورها تهزُّ الكتب الموضوعة على رفوف الممر والمكتبة، فتخرجها أحيانًا من فجواتها الهادئة وتقذف بها دون أي اعتبار، بعنف، على المصابيح والنوافذ. هكذا، وبينما يستيقظ باقي المدينة، في بيتنا الواقع في رقم أربعة بشارع "المحطة"، تُظلم الشمس مهددة بسحب محمّلة بمطرٍ عكرٍ ساخرةً من وراء النوافذ الزجاجية، فتحجبُ الضوء.

نعم، كلّ صباح كانت الفوضى تصعد إلى حيواتنا، تعبر مثل بركان ثائر الأبواب، والجدران والسقوف، لتغرقنا في القلق، تضعفنا كلّ يوم أكثر في الانتظار المتوتر للكارثة، كأننا عصافيرُ عزّلٌ أمام عيني نسرٍ مُحدّقتين. ولا يتوقف ذلك الجحيم إلا في اللحظة التي يذهبُ فيها الطفلان إلى المدرسة، فيطيران نازلين عبر السلالم، شاحبين يتصبّبان عرقًا، كمن يهرب من معركة فظيعة، صغيرين جدًا وهشّين تحت ثقل حقيبتيهما المدرسيتين اللتين يحملانهما على ظهريهما مثل ثُرسين صلبين. وأخيرًا، ينزل الصّمتُ حين نشعر بهما يخرجان من البوابة ليضيعا في جلبة الشوارع الذهبية من أشعة الشمس، في الفضاءات التي تتحرك فيها الدينامية اليومية للخبّازين، وأصحاب الدرّاجات الهوائية، وبائعي الجرائد... غير مُكترثٍ بكلّ الاضطرابات المناخية المفاجئة لذينك الطّفلين السجينين داخل امتدادٍ لا نهائي من أوكسيد الزّركونيوم.

بَيطَرَةٌ مُقارنَة

خلال تلك الظهيرة، استقبلَ الأستاذُ أرماندو أوريستيبوندو، أستاذ مادّة البيطرَة، الطالبَ إغناثيو غويكوتشيا. جرى اللقاء في مكتب الأستاذ؛ لم يسبق لهما أن تعارفا من قبل، لكن الطالب ما إنْ دخَلَ حتى أعلن أنه شغوف ومعجب بالدراسات الحيوانيّة التي ينجزُها الأستاذ أوريستيبوندو.

كان سبب الزيارة هو طلبُ النصيحة من الأستاذ موضوع الإعجاب. كان إغناثيو غويكوتشيا متردّدًا بين متابعة تخصُّصَين دراسيّين: البيطرة والعلوم السياسية؛ كان كلاهما يثيران شغفه، وكان يستحيل عليه وقتئذ أن يحسم ويختار واحدًا منهما.

كان الأستاذ أوريستيبوندو ينظر لحظتها من النافذة وهو يدخنُ غليونَه المعروف على الساعة الخامسة مساء، فدعا غويكوتشيا ليجلس، وبعد أن استمع لكلامه ونظر إليه في عينيه كمن يتفحّصُ مريضًا ينتظرُ التشخيص، أخرجَ بسرعة الجواب الذي كان ممكنًا في رأيه، بالنظر إلى الظروف واستحالة الاختيار: "بعد قراءة الملف الذي أرسلته إليّ بنفسك قبل بضعة أيام، يمكن أن أفترض أنك طالب يستطيع متابعة التخصُّصين معًا في الوقت ذاته؛ افعل ذلك، إذن، وتَحلَّ بما يكفي من الشجاعة لتحقيق رغباتك".

بعد قول ذلك، أوحى بأنه من جهته لم يعد لديه ما يضيف، وأن أمورًا كثيرة تنتظرهُ، فاقترب من غويكوتشيا، مدّ له يده، ودعاه ليغادر المكتب. مذهولًا ومرتبكًا لما سمعه للتو، صافحَ هذا الأخير الأستاذَ، شكرهُ على النصيحة، وغادر كليّة البيطرة كأن أحدهم ضربه على رأسه بمطرقة من حديد. ما كان ليتصور قطّ كلّ ذلك الإيجاز في كلام الأستاذ أوريستيبوندو، الذي كان معجبًا به أيّما إعجاب وكانت نصوصه تتميز في الأوساط العلمية بدقتها العالية وصرامتها.

لكن، بعد يومين، كان الطالب غويكوتشيا ينظر إلى الأمور بشكل مختلف. لقد كلف الأستاذ أوريستيبوندو نفسَهُ عناءَ قراءةِ ملفّه ومنه استنتج قدرته الفكرية، إمكانية أن يكون مؤهّلًا لدراسة التّخصُّصَين معًا. ألم يكن ذلك شيئًا رائعًا؟ في الحقيقة، كان

جوابه هو الأفق الذي كان لا وعيه يرغب فيه دائمًا، لكنه لم يجرؤ حتى على الحلم به.

هكذا تسجّل في التخصُّصَين معًا، وبدأ السنة الدراسية بحماس. ومن الصدف أيضًا أن الكلّيتين، بسبب أشغال إصلاح في كلّية العلوم السياسية، كانتا تقتسمان نفس البناية: تشغلُ كلية البيطرة الطابقين الثالث والرابع، بينما تشغلُ كلية العلوم السياسية الطابقين الأول والثاني.

ومن حسن الحظ أيضًا أنه حسب المنهاج الدراسي الجديد، كانت بعض المواد مشتركة بين التخصُّصَين. فما الذي يمكن أن يطلب أكثر من هذا؟ أحسّ بتناغم كبير في المعرفة البيطريّة/السياسيّة، حتى بدا له أن دراسته، بدل أن تشكل صعوبة كما كان بالإمكان أن يتصوّر في وقت سابق، تبيّنَ أنها امتيازٌ.

بل إنه أحيانًا، نظرا للتشابه بين التخصُّصَين، كان نفس الأساتذة هم من يُدرّسون دون تمييز مواد التخصُّصَين، لدرجة أن الطلبة يمكن أن يقعوا في الارتباك، كما وقع، مثلًا، يوم دخل غويكوتشييا بالخطأ إلى درس "مبادئ عمليّة لذبح الثور"، وهو يظن أنه دخل إلى درس "أسس الفلسفة السياسية الحديثة".

ربما يكونُ الارتباك قد أصابك أنت بدورك عزيزي القارئ؛ وحتى تحكم بنفسك، اقتطفتُ لك مقطعًا من تلك المبادئ العمليّة... ثم، كيف لا يمكن لغويكوتشييا ألاّ يخطئ إن كان أوريستيبوندو أستاذًا للمادتين معًا؟

مبادئ عمليّة لذبح الثور

قبل ذبح الثور يجب تجويعه لمدة اثنتي عشرة ساعة؛ لكن إن لم يتم القيام بذلك على هذا النحو فليست نهاية العالم. يُقتادُ الثور بهدوء إلى المكان الذي سوف يُذبح فيه. تُطلَق عليه رصاصة بواسطة بندقية متوسطة العيار (من عيار ٢٢، عادة) أو بواسطة مسدس خاص بقتل المواشي. إن تم قتلُه بطلقة واحدة، سوف تتجاهل ما يحدث له. ولذلك من الضروري أن يكون توجيه الطلقة بالتحديد إلى النقطة التي يلتقي فيها الخطّان الوهميّان اللذان يربطان كلّ عينٍ بالقرن المقابل.

سوف يسقط الثور على الفور ويظلُّ ممدّدًا على جنبه. حذارا كلّ الحيوانات تمر بلحظات احتضار عنيفة ويمكن لحوافرها أن تكون خطيرة. بعد إسقاط الحيوان، ينبغي الاقتراب من ذقنه ورفعه برجل لتمديد رأسه، مع شدّ قوائمه بالرِّجل الأخرى.

ومع حنجرته الممددة بهذا الشكل، يتم اختراقُ جلده القريب من عظم القصّ والقيام بقطعٍ طوله ٣٠ سنتيمترًا، حتى تبقى القصبة الهوائية عارية. حينئذ، تُغرس السكين قرب عظم القصّ، مع تصويب زاوية من ٩٠ درجة نحو ظهر الحيوان. بعد ذلك، يتم القيام بقطعٍ عميق نحو الأمام، واسع مثل الشقّ السابق. هكذا، يكون السكين موازيًا لجانب من القصبة الهوائية. هذا القطعُ سوف يفتح عدة عروق وشرايين أساسية فيفرغُ الحيوان من دمه.

إن توفرت غدّة مناسبة لذلك، ينبغي رفعُ الحيوان من قوائمه الخلفية لمساعدة عمليّة استنزاف الدم. يُجمعُ الدّم ومنه يُصنعُ الفسوَدُ، كما أنه من المحتمل ألاّ يُصنع هذا المسوَدُ، وبدل ذلك يمكن إفراغ حاوية الدم في كومة السّماد العضوي.

ألا يتضمّنُ ما قرأتهُ للتو، عزيزي القارئ، نفس روح كتاب الأمير لماكيافيلي، ذلك العمل الأساسي في الفكر المعاصر الذي صيغَت انطلاقًا منه أسس الفلسفة السياسية المعاصرة؟ بكل يُسر، لم يكن لغويكوتشييا من أسبابٍ ليشك في أنه كان يتابع حقًّا واحدًا من دروس العلوم السياسية.

بعد تجاوز هذه الالتباسات اليسيرة، تمكّن الطالبُ المتفوق من إتمام التخصُّصَين معًا بدرجة مشرّفة جدًا، وهو حاليًا واحد من أشهر السياسيين في الحكومة. شكّل مسارُه الأكاديمي اتجاهًا اجتماعيًا في عادات اختيار الدراسات الجامعية، لدرجة أنه في "معجم التراجم" الذي أصدرته الأكاديمية الملكية للتاريخ سنة ٢٠١١، يصفونه بأنه رائد التفكير الذي حمل عدة طلاب، في الأربعين سنة الأخيرة، للجمع بين التخصُّصَين معًا في دراستهم الجامعية. وسينتهي الأمر بالعديد منهم بممارسة السياسة، وسيلمع البرلمانُ بفنّ خطابةِ هؤلاء النّواب المرموقين الذي يتباهون في كثير من الأحيان، في خطبهم، بمعارفهم البيطريّة الواسعة.

CamScanner

خارج الصورة

تدور أحداثُ المشهد داخل إذاعة "باهِيا" في برشلونة. يجري إغناثيو مارتوريل مقابلة مع عالمة الأنثروبولوجيا دُورا بييرو لفائدة البرنامج الثقافي "خارج الصورة".

سؤال إغناثيو مارتوريل: "هل تظُنين، سيدتي، أن المساحة الضيقة للمساكن تؤثر بطريقة ما على رؤية الأشباح؟".

جوابُ دُورا بييرو: "نعم، بطبيعة الحال، تحتاج الأشباح لتتسكع في إقامات واسعة، وهي تقطع الممرات؛ كما تفهمُ يا سيدي، هذا الأمر لم يعُد ممكنًا في المساكن الحالية.

"وبما أنه ينبغي أن ندقق، قد أتجرأ لأقول هناك مقاسات فضائية دُنيا حتى تحدث هذه الظواهر الخارقة للطبيعة بما تتطلبه هذه الحالات من وقار. ينبغي أن يتوفر المسكن على ما لا يقل عن ثلاثمائة متر مربع قابلة للسكن، وأن يتجاوز علوُّ السقوف مترين ونصف المتر. والوضع المثالي، أيضًا، أن يكون المنزل مكونًا من طابقين أو أكثر، وأن يتوفر على الأقل على طابق علوي أو علّية. إن النزول عن هذه الشروط الدُّنيا يعني أننا نتحدث عن استحالة حدوث هذه الظاهرة.

"عند هذه النقطة، يجب أن أضيف أن هناك مُتغيّرات أخرى مهمة تؤثر في ذلك، مثل المناطق الجغرافية المختلفة في الكرة الأرضية مع أشكال مناخها الخاصة. هكذا، مثلًا، فإنه من المستبعد جدًا أن تحدث مثل هذه الرؤى في المناخات القاسية، سواءٌ تحدثنا عن الصحاري أو عن القُطبين. من هنا يمكن أن نستنتج أن وجود الأشباح أكثر ملاءمة للمناخات المعتدلة في المناطق الشمالية، وخصوصًا الرطبة منها، حيث يكثر الغطاء النباتي والأماكن الكئيبة.

"وبوضع تماثُلٍ نباتي، فإن موطن الأشباح قد يكون أكثر ارتباطًا بأشجار البلُّوط، والزان، والبتولا أو الصنوبر من ارتباطه بأشجار النخل، والخرُّوب أو الباوباب، التي تميزُ المناطق ذات المناخ الحار.

Telegram:@mbooks90

"بخصوص كلّ هذه القضايا، أنصح بإلحاح بمراجعة كتاب رائع: حول موطن

الأشباح: الأشباح والمناخ، لمؤلفه نيكولاي سكوت، الذي صدر في إنجلترا سنة ١٩٢١ عن دار كيرنير، والذي لم تتجاوزه لحد اليوم أيّ دراسة أخرى.

"يتناول الكتابُ مختلف القضايا المرتبطة بموطن الأشباح ورؤيتها بطريقة علمية ودقيقة تمرُّ عبر الجيولوجيا، وعلم الأحوال الجوية، والفلسفة وعلم النفس.

"في صفحاته، يمكن أن نلاحظ، مثلًا، كيف أنّ مناخًا معيّنًا يؤثر بطريقة حاسمة في التوزيع التشريحي لجسم الإنسان، فتشكل أنواع المناخ القاسية بنيات عظمية أكثر تعقيدًا وقوة، أمام تطوُّرٍ أكثرَ خفّةً في المناطق ذات المناخ الأكثر اعتدالًا في الكرة الأرضية.

"ويُستنتج من ذلك أن البنيات العظمية الأكثر خفّة تسمح بمرور تواترًا أكثر للتدفقات والارتدادات لمختلف سوائل الجسم، مما ينتج عنه سرعة أكبر لحركة الدم في الدماغ الأوسط، وهي المنطقة التي يوجد فيها التلقّي البصري والمغناطيسي للأشباح".

ملحوظة: إلى حد هنا ينتهي تسجيلُ المقابلة مع دُورا بيبِرو التي أنجزها إغناثيو مارتوريل، مذيع في إذاعة "باهِيًا" في برشلونة؛ أما بقية شريط التسجيل، حيث سُجلت تتمةُ المقابلة، فقد صارت غير صالحة للاستعمال بعد الفيضانات التي أثّرت بشكل خطير سنة ١٩٨٥ على كلِّ وسطِ المدينة.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

الآنسةُ هانا

- لكن، كيف يمكن أن يكون كلّ هذا مختلطًا؟ سألت الآنسةُ هانا غاضبةً، وهي تلاحظ الحيوانات المستلقية وسط الكتب والستائر التي علقت بها مُلصقات مانْ راي.

- حسنًا، حسنًا، بدون مبالغة -أجابها مدير "بيت الرحمة" وهو يبعد بلطف بعض الدجاجات التي كانت جاثمة فوق مفاتيح آلة البيانو- هذا فضاء جيد للتفكير، لن تنكري ذلك يا آنسة، أليس كذلك؟ -كان المدير يبدو واثقًا وسط اللوحات، والرفوف والحيوانات- إن النظام لا يُولّد أسئلةً، آنسة هانا، لكن الفوضى تفعل ذلك، أليس صحيحًا؟ بطريقة أخرى، كيف كان لك أن تؤلفي كتابكِ حول "اللغة والإدراك في القرن ٢١؟".

حين سمعت تلك الكلمات، خرجت هانا وهي تصفق الباب بقوة، وبعد أن أسرجت أول جواد وجدتهُ يرتاح فوق الثلج، انطلقت في سباق مجنون، تبيّن مع مرور الأيام أنه أسفر عن رحلة غريبة عبر بيوت أخرى من "بيوت الرحمة" في مختلف أرجاء البلاد، حيث كانت تجد مناظر متشابهة من الفوضى وانعدام النظام، والتي خرجت منها أيضًا بعَدوٍ سريع ما دامت تستطيع أن تجد خيولًا. عندما بدأت الخيول تصير نادرة، اضطرت الآنسةُ هانا إلى... وهنا يمكن للقارئ أن يتابع بمفرده هذه القصّة القصيرة، ويُطوّر خياله إلى حدود لا يمكنُ تصديقها.

يومُ اللِّسان

في يوم اللّسان، تكتسي المدينة بكاملها ذلك الجو الاحتفالي الذي يميز الاحتفالات الكبرى؛ تتزينُ الشرفات برايات صغيرة ملونة، تُمنعُ حركة السيارات داخل وسط المدينة التاريخية، وفي الساحة الكبرى تُقام محلات تقدم أطباقًا شهية من لسان الخروف الرضيع، ذي الأصل المحلّي، الذي ولد في فصل الربيع ولم يتم إفطامه بعد. يضربُ أشهر الطباخين موعدًا في ذلك اليوم، ليروا من منهم سيُحضر أحسن وصفة. هناك وصفات من مختلف الأصناف: لسانٌ مطهوّ، مقصوفٌ، مطبوخٌ، ولسانٌ بالصلصة. ألفُ شكل وشكل من أطباق اللّسان تضمن متعة أذواق المواطنين.

في كلّ الأرجاء، تعلو أصوات الطبول ونغمات المزامير، ويمتلئ الجوّ بروائح لذيذة يتصاعد بخارها من الطّناجر والمقالي تحت السماء اللّسانيّة. يمشي الجميع هناك وهم يشدُّون مناديل كبيرة بيضاء حول أعناقهم، وجوههم الباسمة تلمعُ بالشحم، ومعداتهم الممتلئة مليئة تفيض أكلًا.

لكن، عند منتصف الليل يصلُ الحفل إلى نهايته، وفقط عندئذ يأتي عمال النظافة بعرباتهم الصغيرة ومكانسهم، تتبعهم زمرة من عازفي المزامير والطبول وجمهور غفير، ثم يتوجهون كأنهم في موكب دنيوي نحو الضواحي، حتى يبلغوا ذلك المكان حيث تنتهي المدينة ويبدأ البحر، ليحملوا في شاحنة القمامة عشرات الخرفان مقطوعة اللّسان التي تستلقي فوق رمال الشاطئ في انتظار أن تُنقلَ إلى المَكَب البلدي.

مقهى فولتير

أنا خادمةٌ في مطبخ مقهى فولتير في مدريد. يتمثّل عملي في غسل كلّ ما تحمله لي النادلتان اللّتان تشتغلان عند المنضدة والموائد، في الحفاظ على النظافة التامة لكل الصحون، والكؤوس، والأكواب وأطقم الأكل، وإعدادها لتكون جاهزة للاستعمال في أيّ لحظة وحين. عندما تصل الأبراج الصغيرة من الأطباق الوسخة، من كؤوس وما إلى ذلك من أوانٍ خزفية، فإن أول ما أقوم به هو أنني أضعُها على يمين المغْسل، ومن هناك آخذ كلّ شيء، وبعد أن يصبح نظيفًا أضعُه في المكان المخصص له، حتى تتمكن النادلتان من العثور عليه بسهولة.

اليوم غسلتُ مئة وأربعة وعشرين صحنًا، وخمسين سكّينًا، وخمسًا وسبعين شوكة ومائتين وخمسًا من الملاعق الصغيرة. من عادتي أن أحصي كلّ ما أغسلُ، إنه نوع من التأمّل الذي يمنحني الهدوء. بعد ذلك، عند نهاية اليوم، عندما أصل إلى البيت، أدوّنُ كلّ شيء في دفتر ذي غلاف أخضر أحتفظ به في مائدتي بجانب السرير. يعجبني مراجعةُ صفحاته وعدّ مختلف الأشياء التي غسلتُها طوال حياتي في كلّ الحانات التي اشتغلتُ فيها.

هذا يمنح مهنتي تماسكًا، لأن ما أقوم به مهنةٌ، وهذا ما تشير إليه بكل وضوح بطاقتي الشخصية. ليس كلّ الناس مؤهلين لممارسة هذه المهنة، هناك من يظنون أنّ فِعْلَ الغَسل يمكنُ أن ينجز بأي طريقة، وبعد ذلك، بما أنهم لا يعملون بكل وعي ولا يضعون فيما يقومون به كلّ المهنيّة والخيال المطلوبين، ينجزونه بشكل سيء فيكون لذلك عواقبُ. في برشلونة، عرفتُ زميلًا كان يعتقد أنّ الغسل هو الخياطة والغناء، وأنّ القيام بذلك لا يتطلب كثيرًا من الانتباه. فلم يكن يركز كما ينبغي ولا يضبط الصابون ولا الممسحة؛ وكانت النتيجة كارثيّة: لم تكن الكؤوس ولا الصحون ولا أطقم الأكل تلمع، فينتبه الزبائن للأمر، بل إن أحدهم اشتكى مؤخرًا إلى صاحب المحل وقال له: إن الأطباق والكؤوس كانت تبدو غير شفافة ومن دون بريق في الآونة الأخيرة، كما أنّ الزبون لا يحظى بما يجب من عناية. من نافلة القول أن أؤكد أن ذلك الغسّال قد شرّح على الفور.

على العموم، إنّ زبون هذا النوع من الحانات التي اشتغلتُ فيها، من محلّات شرب القهوة والأحاديث الأدبية والسياسية، يعجبُه أن يرى نفسه كما في مرآة في الأطباق وأطقم الأكل، وأن يُملّس شاربه على ظهر الملعقة الصغيرة، بل وحتى أن يراقب خلسة زبونًا آخر من خلال الزجاج النقي لكوبه.

ومن جهة أخرى، إنه لأمر جميل جدًا أن تمشي الواحدةُ وسط الموائد محاطةً باللمعان القوي لكل ذلك، كما قد تمشي وسط منظر من النجوم التي ترتسم في السماء. من حين لآخر، أقوم بذلك؛ أخلع المريلة، القبعة والقفازين ثم أخرج من المطبخ تحت أي ذريعة وأتنزه في المحلّ أستمتعُ بالطهارة التي خلقتُها بنفسي، وأنا راضية على ذلك رضًا كبيرًا حتى إنني لن أستبدل تلك اللحظات بأي شيء آخر من هذا العالم. في مثل هذه الأيام، أعودُ إلى البيت سعيدة تمامًا ومسترخية، مستعدة لأفتح دفتري ذي الغلاف الأخضر وأدوّن فيه معطيات الغسل الجديدة. هذا العدُّ مهمٌّ للغاية، بما أنه يختلف عن تقييم ما أنجزتُه في حياتي بالعبارة المتواضعة "عاملةٌ في حانات ومطاعم" كأن أحدّد أرقامًا. هكذا، مثلًا، منذ أن بدأتُ أشتغل ربّما قمت بغسل ستمائة ألف صحن؛ والناس يحترمون مثل هذه الأمور، لأن الأرقام تشبه نوعًا ما كبار ضباط الجيش الذين يحترمهم الجميع ويؤدون لهم التحية. لذلك، حين أجيب على أسئلتهم من أعلى حساباتي بوصفي عاملة في مطبخ، ألاحظُ أنهم ينظرون إليّ بما يشبه الإعجاب. كنتُ دائما أقول إنه ينبغي الحديث بدقة؛ لأن اللغة تفتح للمرء أبوابًا تغلقها الحياة في وجهه، وهذا أمرٌ تأكدتُ منه. بل إن استعمالًا صحيحًا للّغة يمكن، في الحقيقة، أن ينقذ المرء في حالات يائسة؛ وعلى طريقتها، تكون اللغة سلاحًا غير عدائيٍّ لكنه فعّال.

علاوة على هذا، أجد في عَدّ الأشياء نوعًا من الفلسفة، طريقة لإنقاذ الحياة التي تنفلت، لأنه في نظري ما لا يُعدّ يبدو كأنه لم يوجد قطّ. إنّ سَرْدَ حياتي في أرقام قد أكسبني كثيرًا من الأصدقاء والمعجبين، الذين أعتزُّ بهم بكل صراحة.

ذلك أن الناس غير متعوّدين على أن يقول لهم المرء، مثلًا، إنني منذ أن غادرتُ بلادي، قبل ما يزيد عن ثلاثين سنة، أكلتُ ثمانية آلاف حبة زيتون سوداء، أو إنني

قد خِطْتُ مائتي مرّة أزرار قمصان زوجي وأبنائي.

من يستمعون لي لم يسبق لهم أن فكروا في الأمر قطّ، يعيشون من دون أي نوع من الحساب، كأنهم يلقون في البحر بأي دقيقة يعيشونها دون خوف من النسيان، كأنهم يطفون في فضاء أبيض وفارغ لا يتوفر على أي إشارات من أي نوع كان. يجهلون كلّ شيء، كم عدد الخطوات من بيتهم إلى مقر العمل، كم عدد الدرجات التي كان عليهم أن يصعدوها أو ينزلوها طوال حياتهم، كم مرة أصيبوا بالزكام. على أي حال، أمامهم جميعًا أعتبرُ نفسي امرأة محظوظة.

وقد دفعتني عادة العدّ هذه إلى قراءة كلّ أنواع الكتب كي أعثر فيها على عمليّاتِ عدٍّ ضرورية ربّما تكون قد غابت عني، نظرًا لمستواي الدراسي المحدود. أستمتع كثيرًا بالقراءة في لحظات فراغي، التي ليست بالكثيرة، لكني أجد بعضًا منها، خصوصًا الآن بعدما كبُر ابناي وأصبحا يعملان خارج البيت طوال اليوم.

من بين تلك الكتب التي أستعيرها من المكتبة البلدية في حي لابابييس، هناك واحد حول الجسم البشري يثيرُ إعجابي تمامًا. علمتُ من خلاله أن كلّ أعصاب جسمنا، لو وُضعتْ الواحد خلف الآخر، قد يصل طولها إلى ما يناهز ١٥٠ مليون كيلومترًا! وأن عيني الإنسان عبارة عن عدستي تصوير تتشكلان مما يزيد عن ألفي قطعةٍ صغيرة.

هذا العدُّ المتعلق بجسدنا جعل كلّ عمليات العدّ التي قمتُ بها طوال حياتي تبدو لي تافهة؛ الآن، مثلًا، عندما أتجول بين موائد الحانة، سعيدةً وسط لمعان الأكواب وأطقم الأكل، ألاحظُ الأشياء بطريقة مختلفة؛ أعرفُ أنّ الرّجل ذا الملابس السوداء الذي يضعُ نظارتين مدوّرتين من الشكل القديم وله شارب قصير من زمن مضى، ويجلس دائمًا قرب النافذة الكبيرة، لهُ هيكلٌ عظميٌ يتشكل من مائتين وستٍ من العظام، وهو خُمس عدد المرات التي ضربني فيها زوجي منذ أن تزوّجنا. ذلك أن عالم الأرقام يعُجّ بالمفاجآت، وهي كثيرة جدًا حتى إنها تحولت إلى شغف حقيقي بالنسبة لي، لدرجة أنني أصبحت أعدُّ كلّ شيء؛ والقيام بذلك لا يسليني فحسب، بل يجعلني منيعةً لا أُقهرُ أمام الشدائد. إنّ ممارسة الرياضيات المقارنة، التي

اكتشفتها مؤخرًا من خلال قراءاتي، جعلت حياتي تتحوّل إلى لعبة كبيرة من الأرقام التوافقية، التي لا أحتاج فيها أن أفهم أي شيء، ولا أن أتساءل عن أيّ شيء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمورٌ مُنحطّة

رجلان يتحدثان قرب شجرة تين. السيد "أ" يقول للسيد "ب":

- حدثت الأمورُ بشكل مفاجئ، في اللحظة بالضبط التي كان فيها السيد النائب فرديريك نيتشه يعرض في البرلمان أفكاره بخصوص ما تتعرض له قيمُ المؤسسات من ضياع مُثير للقلق، وكان يقول تلك الأمور مثل:

"إلى كل هذا المدى من الانحطاط وصلت غريزةُ القيم الخاصة لسياستِينا، وأحزابنا، حتى إنهم أصبحوا جميعًا يفضلون ما يُفرّق، وما يُعجّل بالنهاية. الدليل: الزواج الحديث. واضح أن الزواج العصري قد فقد السيطرة على علّة وجوده: هذا الأمر لا يشكل اعتراضًا على الزواج، بل ضدّ الحداثة. كانت علّة الزواج تتمثل في المسؤولية القانونية الحصرية للذّكر: وبذلك كان للزواج مركز ثقل، بينما هو اليوم يعرجُ بكلتا رجليه. كانت علّة الزواج تتمثل في أنه لا يقبل الفسخ من حيث المبدأ: وبذلك كان يكتسب نبرة كانت تعرف كيف تُسمِعُ صوتَها أمام عشوائية الإحساس، وأهواء اللحظة. كان يتمثل أيضًا فيما تتحمّلُه الأسرة من مسؤولية في اختيار الزّوجين. لكن، مع تنامي التسامح مع الزواج على أساس الحب، أُقصي بالتحديد أساسُ الزواج، ذلك الشيء الذي يجعل منه مؤسسة. إنّ مؤسسة ما لا تنبني أبدًا على خصوصيّة ما، والزواج لا ينبني على الحب، ينبني على الغريزة الجنسية، غريزة الامتلاك، الزوجة والابن مثل ملكيةٍ، على غريزة السيطرة، التي تنتظمُ باستمرار على أيسر شكل من أشكال السيطرة، الأسرة، ويحتاجُ لورثة كي يحافظ جسديًا أيضًا على أبعاد سلطويّة مكتسبة من قبل..."(5).

فُتحت أبوابُ المجلس فجأة، فدخلت في فوضى صاخبة خمسٌ وعشرون بقرة من نوع "بيي نوار" المتحدرة من منطقة بروتانيا الفرنسية، اثنتا عشرة من جبال البيريني وخمسٌ من جبال استكتلندا؛ مائتا نعجة من نوع "لاتسكا"، خمسة عشر حصانًا اسكتلنديًا وعدد غير محدد من الدجاج، والإوزّ والبطّ.

لك أن تتصور يا سيدي الهلع الذي أصاب كلّ السادة النواب. لم يكن حضراتهم

ينتظرون إطلاقًا أن المشاكل التي كان مربّو الماشية يجرجرونها منذ وقت طويل في ارتباط ببعض القوانين الأوروبية، التي تؤثر مباشرة على اقتصاداتهم، يمكن أن تصل إلى حدود كبيرة من الهمجيّة، بل وإهانة البرلمان. لذلك، بما أنهم لم يكونوا مستعدين لظرف كهذا من الفوضى غير المتوقعة، كان رد فعلهم منعدمًا؛ أي أنهم جميعًا، وقد اعتلاهم شحوبٌ كبير وغضبٌ عارم، ظلّوا في مقاعدهم كأنهم أصيبوا بأزمة إغماءٍ تخشُّبي حادّ، رغم أنّ عددًا كبيرًا من البقرات، والخيول، والنعاج، والخنازير، والإوز، والبطّ والدجاج كانت تتجول على هواها مُكسّرة جزءًا كبيرًا من أثاث المؤسسة.

كان منظر البرلمان في حالة من الفوضى، وصورته تعكس حظيرةً تعج بالشغب. فماذا تظن أنه قد وقع يا سيّدي؟ أعطيك ثلاث إمكانيات مختلفة لتختار من بينها:

قامت قوات الأمن بطرد كلّ الحيوانات.

أمام المنحى الذي أخذته الأحداث، علّق الرئيس الجلسة وأخذ السادة النواب يغادرون قاعة الجلسات.

ظلت الأمور مستقرة، أي أنه لما كان السيد فرديريك نيتشه يلقي كلمته، وبعد فترة صمت قصيرة ناتجة عن ذلك الاقتحام المفاجئ، تابع خطابه وسط جلبة عامة من القُباع والخُوار.

- لا أعرف ما أقول لك. أجابه "ب" وهو يجلس فوق العشب على وشك أن يأكل حبّة تينٍ شهيّة. اتخذ السيد "أ" لنفسه مكانًا بالقرب منه.

- سوف أقول لك ذلك: ما حدث هو أن السيد فرديريك نيتشه، عدّ كلّ تلك الجلبة عرَضًا من أعراض انحطاط قيم المؤسسات، فقرّر مواصلة خطابه كما لو أنّ شيئًا لم يحدث.

"إن مؤسساتنا لم تعد لها أي قيمة...". كان صوته أسفًا.

لم يكن أحد يستمع إليه، فحضرات السادة النواب كانوا يتسلقون مذعورين سلالم البرلمان، فاستولت رؤوس الماشية على المقاعد الفارغة. طارت إوزّةٌ حتى بلغت المنبر ثم وضعت بيضة جميلة على الأوراق التي كان يقرأها المتحدثُ في تلك

اللحظة بالضبط. امتدت الجلسة إلى ساعات متأخرة من الفجر.

انتهى السيد "ب" من أكل حبة التين الشهية، ثم صاح وهو ينظف شفتيه بواسطة منديل نظيف جدًا ذي لون أزرق فاتح:

- عليك أن ترى حلاوة حبات التين هذه؛ لم أر قط أحسن منها! لكن، تابع، تابع، إنني أصغي لك... تقول يا سيدي، إن الأمور استقرّت في البرلمان...

---

(5) فردريك نيتشه: انحطاط المؤسسات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرأة ذات الحذاء

كانت في قبعتها أشياء صغيرة أعيد تذويزها: سدادات قنان ملونة من الفلين، مُلصَقات مستعملة، طوابع بريدية ألصقت على شريط أخضر... كان كلّ شيء فيها، من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، حماقةً حقيقية. كانت ترتدي معطفًا بمربعات خضراء وسوداء واسعًا أكثر من اللازم عن مقاسها، وتنتعل حذاء أحمر مطاطيًا من ذلك النوع الذي تستعمله البدويات لولوج الحظيرة لإطعام الماشية. كان كلُّ شيء يشي بأن ذلك لم يكن هو اللباس المناسب لمناقشة أطروحة في قاعة الدكتوراه في الجامعة.

كنتُ هناك بصفتي عضوًا في اللجنة، وجئتُ لأعوض صديقة صحفية لم تستطع أن تحضر، وكان عليّ أن أكتب تقريرًا عن عملية مناقشة الأطروحة حتى أتمكن من نشره بعد ذلك في المجلة الداخلية للجامعة.

كانت الأطروحة التي ستناقشها تلك المرأة المدهشة تحمل عنوان... وهنا يفتح فراغ كان ينبغي للراوي أن يملأه باتباع خطّ معنى منطقي، لكن، مع ذلك، يقطعُ النص بشكل مفاجئ، ليترك القارئ غارقا في الحيرة.

لكن، بما أن كلّ القرّاء ليسوا متشابهين، فبينما يظلُّ واحدٌ مشلولًا من الدهشة، ربّما يحاول آخر، في محاولة عقيمة للتكهن، بالتفكير في العناوين الممكنة للأطروحة، ويربطها بالمظهر الغريب للمرأة. هذا القارئ الثاني ربّما سيخصص حوالي خمس دقائق لهذا التمرين، وبعد مرورها سيمرُّ، دون تأخير، لقراءة قصة أخرى أو سيعود ليقرأ مرة أخرى ملخص فكرة الكتاب التي تظهر على الغلاف الخلفي، في حال وجد هناك معطى ما عن الكاتب يمكن أن يُسهّل بشكل أكبر فهم هذا النوع الغريب من الكتابة.

ربما يكون هذا القارئ محظوظًا ويجد بسرعة حلًا للغز أو، عكس ذلك، ربّما يدفعه الغلاف الخلفي إلى البحث عن كتب أخرى شبيهة بهذا الكتاب حيث يكتب المؤلفون بطريقة مماثلة، هكذا، وبعد مرور السنوات، يتحول من دون أن يعي ذلك، إلى

متخصص حقيقي في النصوص المشفرة، غير المنتهية، بحيث يتعود على هذا النوع من الأدب، فلا يجد أي متعة في الكتب التي تتضمن قصصًا تبدو واضحة تمامًا، والمنتهية بشكل تام. ومع هذه النصوص يفقد هذا القارئ حماسه بعد أن تحوّل إلى شرطيّ تحقيق، لأنه تعود على اللغز، والبحث عن المعنى في نصوص غير تقليدية.

بل يمكن أن يحدث أن تلك القصّة غير الكاملة حول المرأة الغريبة، التي كانت ستناقش أطروحتها، ربّما تدفع هذا القارئ الفضولي إلى استقصاء الأشياء المرتبطة بذاكرتها، مثل السدادات الفلينية الملونة في قبعتها، وقد يقرر يوما ما أن يسلك طريق الفلين على الطريقة التي سلك بها ماركو بولو قبل قرون طريق الحرير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليس هناك من وقتٍ لكتابةِ رسالةٍ واحدة

حين نجد أنفسنا غارقين في دوّامة جارفة من العمل ولا نملك ماديًا وقتًا لكتابة رسالةٍ واحدة بكل هدوء وراحة ضروريين، حينها يفرضُ التقشف في اللغة نفسه بقوة. سأعرضُ عليكم، كمثال على ذلك، ثلاث صيغٍ قصيرة لنفس الرسالة التي حُرّرت في واحدة من تلك اللحظات القصوى من الالتزامات المهنية من كلّ نوع. اختار الكاتب المتوتّرُ واحدة منها؛ ويبقى القارئ حرًا لينجح في معرفة أيّ واحدة من الرسائل الثلاثة وقع عليها الاختيارُ(6).

صيغة "أ"

سيد آلبارو إيخييا المحترم،

ألخص لكم ما جاء في محاضرتي:

إن القومية، بما فيها أكثر أشكالها اعتدالًا، تضرب بجذورها عميقًا في الاختلاف، في تفرُّد بعض التقاليد المعينة، اللغات، العرق، الخ... بالمقارنة مع شعب آخر أو بلد آخر، غالبًا ما يكون جارًا. هذا الإحساس الجماعي القوي في شكله المرضي يُبرزُ قيمة الثقافة الذاتيّة؛ ولأجل ذلك، من عادته أن يستعمل طريقة تعبير رومنسية، لكن، في حالة قصوى، يمكن لهذه الطريقة أن تصبح عنيفة، غير عقلانية ومُهدِّدَة. كانت لدينا أمثلة واضحة على ذلك في قرننا العشرين في أوروبا أدّت في النهاية إلى أفظع المجازر.

تحياتي، ونلتقي يوم الخميس في مدرج المحاضرات في الجامعة.

صيغة "ب"

آلبارو،

(إن القوميّة، بما فيها اختلاف أكثر شكل من أشكالها اعتدالًا، بجذورها في تفرُّد المعينة شكله المرضي يُبرزُ، جماعي غير عقلاني يستعمل تعبيرا يضرب أقصى الآخر غالبًا ما يكون على شكل جارا. في قرننا العشرين إحساس قوي أوروبي كان لنا لذلك

رؤية رومنسية لكن عنيفة في حالة ما عرق، في النهاية مجزرة نلتقي).

صيغة "ج"

(محاضرة، قومية، مجازر تُبرزُ تفرّد مرضيّة لغات القرن العشرون، الخميس أقصى أذت).

---

(6) تستعمل الكاتبة في هذه القصة ثلاث صيغ لنفس الرسالة تتدرّج من الوضوح إلى الزكاكة والحذف. (المترجم)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ندوة صحفية في المعرض الذي يقام كلّ سنتين

في قاعة من قاعات المعرض الذي يقام كلّ سنتين في البندقية، غصّت عن آخرها بالجمهور ووسائل الإعلام، إذ كانت الفنانة تشرح مشروعها المتمثل في "عرض" متعدد.

أثناء ذلك، داخل أسماعنا، كانت كلماتها تغوص أعمق فأعمق داخل الظلام. كان تعبيرها الكثيف واللّزج يلتصق بقوة بحواسنا ويتركها ذابلة، كأنها تحت تأثير امتصاص قويّ يفرغنا من كلّ طاقتنا، من كلّ إمكانية للفهم. بعد تجريدها من كلّ بنياتها، تُختزل أجسادنا في مادة تافهة غائبة، تتلاشى في عُمق دولاب.

في كثير من الأحيان، في مثل هذا النوع من المناسبات يحدث أنّ الفنانة، وقد انتقلت إلى الأعلى بسموّ تفكيرها، تخترقُ السقف لتتيه رشيقةً بين السحب، بينما عيونُنا البقريّة تتابعُ صعودها حتى تلاحظ فوق رؤوسنا براز طيورٍ غير مقروءة. حينئذ، تُلامس الندوة نهايتها، ونعود معظمنا إلى بيوتنا مُلطّخين بثقل جهلنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشهدٌ لحظيرةٍ

فوق خشبة المسرح، محطةٌ ورجُلان جالسان على مقعد ينتظران وصول القطار.

الرجل المحلّي: إنك تبدو أجنبيًا يا سيدي. كيف هي المناظر الطبيعية في بلادك؟

الرجل الأجنبي: أولًا، هناك الشرجُ وبعده يأتي المعَيُ الغليظُ؛ وبعدهما هناك الأجزاء العمياء من المعَي، المعَي الدّقيق، العفج، لوزةُ المعدة، الحوصلةُ، بالإضافة إلى الجزء الأمامي من المعدة، الكبد والمرارة، وأخيرًا لدينا الحلقُ، المريءُ، اللّسانُ والفمُ.

الرجل المحلي: لكن، يا إلهي! عن أي شيء تحدثني؟ لقد سألتك عن جغرافية بلادك، وليس عن أعضاء جسم الدجاجة.

الرجل الأجنبي: ألاحظ بكل سرور أنك تعرف العالم العجيب للدجاج.

الرجل المحلي: لم يكن التكهن بذلك أمرًا صعبًا.

الرجل الأجنبي: ألمسُ في كلماتك شيئًا من التشكيك فيما قلتُ.

لحظتها، ينهضُ الرجل الأجنبي ويتوجّه نحو الرجل المحلّي، ثم يقول له وهو يشير إلى البيضة المتوهجة البيضاء التي تلمع الآن فوق المقعد.

الرجل الأجنبي: أرأيتَ؟ بينما كنتُ أتحدثُ معك وضعتُ بيضةً. هل تفهمُ الآن خصوصية الجغرافيا التي أتحدّثُ منها؟

الرجل المحلي: أفهم شيئًا ما.

يجمع الرجل الأجنبي البيضة، يحتفظ بها في جيبه، ثم يعود ليجلس وهو يقوقُ بهدوء. ينهض الرجل المحلّي ويأخذ على عجل أي قطار، أول قطار يمرُّ في تلك اللحظة.

ينتهي المشهد؛ ينزل الستار. مرة أخرى، كما استمر ذلك لأكثر منذ شهر على العرض الأول للعمل، كان المسرح فارغًا تمامًا.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

رحلةٌ إلى باريس

صعدَ إلى القطار في محطة سانتا مارغاريتا. عندما ولجَ المقصورة تمكّنتُ من رؤيته بشكل أفضل: كان رجلًا نحيفًا قصير القامة جدًا، يبدو غائبًا داخل المعطف الرمادي الواسع الذي يجرجره عبر الأرضية كثيرًا، حتى إنه يستحيل ألا يتعثر ويسقط في أيّ لحظة.

ما إنْ دخلَ حتى نهضتُ وعرضتُ عليه أن أرفع حقيبتَه الضخمة إلى رفّ الأمتعة، العالي جدًا بالنسبة إليه، لكن حينئذ، من دون أن أنتبه للأمر تقريبًا، وجدتُني عالقًا بين النافذة وزِرِّهِ الضخم الوحيد الذي يربطُ به معطفه، والذي كان عند مستوى رُكبتيّ بالضبط.

- دائمًا يحدث نفس الأمر. غمغم بحزن.

في الحقيقة، وقد وقفتُ الآن، يمكن أن أرى الأمور بشكل أفضل، كان الزرُّ بحجم يبدو كأنه دفة سفينة يختفي من ورائها الرجلُ القصير جدًا. كانت وضعيتُنا وضعية جمود تام؛ بقينا محصورين تمامًا بين الباب والزّر الذي يدفع جسدي نحو النافذة.

بما أننا لم نكن نستطيع أن نتحرّك، لم نكن نستطيع أن نجلس كذلك، لذا قررنا أن نأخذ الأمور على أحسن وجه ممكن. سألتُه كيف يسافرُ بحقيبة ضخمة وثقيلة جدًا، فقال لي إنه خياط، من أحسن الخياطين في العاصمة، وأنه متوجه إلى باريس، ويحمل مجموعة كاملة من عيّنات الملابس والفساتين إلى دار "فوزيي وشُركائه" حتى يتسنى لعارضي أزياء دوليين مهمّين أن يرتدوها فوق منصّة عرض الأزياء أثناء فصل الربيع القادم.

والملابس، كما نعرف طبعًا، تشغلُ حيّزًا كبيرًا، لكنه كان يفضل أن يقوم بالأشياء على هذا النحو، ألاّ يفوض نقلها لأي شركة نقل؛ فتصاميمُه كانت حساسة للغاية ولا تتحمّل تسليمها إلى آخرين.

كان بودّي أن أسأله عن أمور أخرى كثيرة، لكن ضغطَ الزّر على ركبتي اليسرى بدأ يزدادُ حتى إنني فكرتُ في أن أنزع عنه المعطف بيديّ، لكنني ما كنتُ أستطيع ذلك:

كان الزّر مشبكا في العروة بإحكام، وفوق ذلك كانت حواشيه غليظة وصلبة مثل عظم. كانت قواي تخذلني، لم أستطع قطّ أن أسافر واقفًا، فرأسي يدور ولن تتأخر الدّوخة في الظهور.

اقترحتُ على ذلك الرجل أن يحاول أن يستدير نحو اليمين حتى أتمكّن، على الأقل، من أن أسند رأسي إلى الجدار، لكن ذلك كان أسوأ. منحصرًا كما كنتُ بين الحقيبة وجسمي، كان الشيء الوحيد الذي نجحتُ في فعله هو أن أضع الزّر جانبًا على شكل سند، يضغط بشكل كبير على بطني، حتى ظننتُ أنه قد أغمي عليّ؛ كانت عيناه ترقبانني مرعوبتين.

- ما كان عليك أن تطلب مني ذلك، إنك لم تكن متعقّلًا.

رأيتُ قطرات عرق على جبينه، وعبثًا كان يحاول أن يعود إلى الوضعيّة السابقة؛ كان يحرك متوتّرًا ذراعيه كأنهما جناحين دقيقين، لكنه، في الحقيقة، بالكاد كان يستطيع أن يتحرك، فحواشي المعطف، المحصورة تحت الحقيبة، وقدماي كانت تعيقه. اضطررتُ أن أتوسل إليه أن يكف عن التحرّك. كانت حركاته تغرس الزّر عميقًا أكثر فأكثر في أحشائي.

- أنا خيّاط أمارس فنّ الخياطة الراقية، وأشتغل فقط على الحرير.

قال فجأة، كما لو أن أحدًا سألهُ عن ذلك، أو حاول بطريقة ما أن يُسوّغ تلك المأساة الصغيرة التي كنا متورطين فيها. تملكّتني رغبة في أن أقول له إن معطفه بالتحديد لم يكن من حرير، بل من ثوب غليظ خشن، لكني لزمتُ الصمت، من بين أسباب أخرى، لأنه قال لي فجأة، على حين غرة، شيئًا لم أكن أنتظره بتاتًا:

- لقد قال ذلك إزرا باوند: "لولا كونفوشيوس، لكنّا ما نزال نربط المعطف مقلوبًا". وبفضل الصليبيين نستطيع اليوم أن نغلق المعاطف والسترات، فهُم من جلبوا الزّر إلى أوروبا؛ وإلى غاية ذلك العهد كان الشيء الوحيد المتوفر هو المشابك للأغنياء، والعقد ودبابيس الأسلاك للفقراء.

ما الذي كان يحاول أن يقوله لي من كلّ ذلك؟ أكيد أن الصليبيين لم يجلبوا زرّهم

الغريب ذاك إلى أوروبا، كنت متأكدًا من ذلك، لكني لحظتها أيضًا لم أقل له أي شيء؛ كانت معدتي تؤلمني ألمًا كبيرًا حتى إنني لا أستطيع الكلام. بالإضافة إلى ذلك، كان آخر ما يهمني في تلك اللحظات هو أن أتحدث عن تاريخ الزر.

دفعَ الألمُ أفكاري لتجمحَ نحو الأسوأ: وماذا لو كان مجنونًا؟ وماذا لو أنه من خلال حيلة الزر تلك كان يحاولُ أن يقضي عليّ؟

وفق ما استطعتُ، طلبتُ منه أن يحاول أن يرفع الحقيبة ويفتح باب العربة. وهكذا، بعد الحصول على حيّز أوسع، يمكنه أن يخرج إلى الممر وأحاول أنا أن أضع متاعه في مكان ما حيث لا يُزعجُ كثيرًا.

من الناحية المنطقية، عند هذه النقطة، ينتظرُ مني القارئ أن أتابع سردَ الأحداث، لكن هذا غير ممكن، لسبب يسير: ليست لدي أدنى فكرة عما حدثَ بعد ذلك، لأن كلّ ما سردَ إلى حد الآن يشكل جزءًا من حلم غريب رأيته بالضبط خلال رحلة بالقطار إلى باريس في الأسبوع الفارط. مررتُ بأيام عمل عصيبة، فأصابني تعب شديد ولا بُدّ أنني نمتُ نومًا هادئًا. حين استيقظتُ كنا نصل إلى محطة أوسترليتز في باريس، وكانت عربتي فارغة، بطبيعة الحال.

ما الذي أستطيع أن أقول لكم أكثر من هذا؟ أنني فقط -ربّما- ما كنتُ أستطيع أن أبدأ في أن أحكي لكم هذا الحلم الغريب، لو لم يوجد ظرفٌ غريب يتمثل في أنني خياطٌ وقامتي قصيرة بالفعل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسافران

بصفتي قارئةً وكاتبةَ قصص، طالما أثارتني الإمكانيات التوافقية المتعددة وأنا أفكرُ في الحبكة وشكل النص، من وجهة نظر اللغة، بوصفها نظامًا مترابطًا من العوالم التي تتوقّفُ رؤيتُها على قدرتنا على الخيال.

انطلاقًا من هذا التصور، أردتُ أن أكتب مجموعة من القصص التي تتواصل فيما بينها، تنسابُ بطريقة طبيعية من نصّ إلى نصّ، مثل نهرٍ يعبرُ مناظر طبيعية، ليصل إلى فضاءات أخرى، إلى إمكانيات استكشاف أخرى، بحيث يكون من الممكن التنقل عبر القصص التي تملك شيئًا مشتركًا بينها، فنجد آثار قصة في قصة أخرى في ظروف مختلفة.

منذ مدة طويلة وأنا أرغب في القيام بشيء من هذا القبيل، شيء لعِبيٌ من جهة، وحقيقيٌ جدًا من جهة أخرى، قريب من الديناميّة اليومية لأفكارنا وأحاسيسنا؛ فنحن لا نعيشُ ظواهرَ معزولة بل متصلة بشكل حميمي.

هناك موضوع آخر في كلّ هذا كان يهمني أن أعكسَهُ: القدرة على ربط الأحداث، والأفكار، والأحاسيس، إلخ... في هذا كله، تلعبُ القدرةُ الإيحائية للكلمات دورًا جوهريًا، الإمكانيةُ الكامنة في كلّ كلمة في أن تجعلنا نسافر إلى عوالم مختلفة، تأخذنا بدورها إلى عوالم أخرى، وهكذا دواليك. مثلًا، هناك قصّتان من قصصي، "المسافر"(7) و "تنويعات على لوحة لبُول كلي"(8)، اخترت كلمة تشتركان فيها معًا، يمكن أن تكون رابط لبداية السفر، وهذه الكلمة هي "قطار". يبدأ السفر: في القصّة الأولى التي تحمل عنوان "المسافر"، تظهر شخصية تنتظر القطار، وفي القصّة الثانية، "تنويعات على لوحة لبول كلي"، هناك شخصية أخرى تقرأ كتابًا داخل قطارٍ.

وجدتُ أنه يمكن أن يكون من المهمّ ربط هذين الظرفين بطريقة ما؛ أن تصلَ الشخصيةُ التي تقرأ كتابًا داخل القطار في القصّة الثانية إلى المحطة التي تنتظر فيه شخصية القصّة الأولى وصول قطارها منذ مدة طويلة. يمكن للشخصيتين أن تلتقيا أو لا تلتقيا؛ فالإمكانيات كثيرة، لكن ينبغي اختيار إمكانية واحدة لينتج عنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نصٌ صغير آخر، وإن كان ينبغي ترك الباب مفتوحًا أمام إمكانيات أخرى، قد تفسح المجال، طبعًا، لقصص ونصوص أخرى مختلفة.

أختار إمكانيةً: البحثُ عن أوجه الشبه بين الشخصيتين. وسرعان ما أرى هوّيتهما معًا: الرجل ذو المعطف الطويل والقبعة الذي يقرأ كتابًا في قصة "تنويعات على لوحة لبّول كّلي" هو الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا، الذي يصل إلى محطةٍ حيثُ مسافرٌ يدعى فرانز كافكا ينتظرُ وصول القطار.

هناك عدة أشياء مشتركة بينهما: كلاهما كاتب، كلاهما يضع قبعة، وهما كئيبان معًا. أيضًا، بمواصلة أوجه الشبه، يبدأ الاسم الشخصي لكل واحد منهما بالحرف اللاتيني "F".

إن حرف "F" يأتي في المرتبة السادسة من حروف الأبجدية، وبما أنّ كلا الكاتبين كانا يهتمان بالقبّالة ورمزية الأعداد بشكل خاص جدًا، سأسافرُ الآن نحو دلالة رقم ستة في إطار رمزية الأرقام. إن رقم ستة يمثل مستوى الإبداع والقدرة على الصياغة، سلطة الفكر على المادة، السيطرة الذهنية القادرة على تحويل الجامد إلى إبداعٍ، إلى جمالٍ. كما يقول أذلي، إن رقم ستة المتناسق هو الفن بوصفه صنعة، بناء من آلات أو أشياء لا توجد بشكل طبيعي. لكن، هناك وجه آخر من وجوه رقم ستة يحدثنا عن سلوكات قهرية وحركات متكررة، يمكن أن ترتبط، في جانبها السلبي، بتصرُّفٍ مُؤلم، بحيث يمكن أن تنتج عنه هواجس، وهوس، وتعلُّق ببعض الأشكال والأفكار أو التصرفات المتكررة. بل إنه، في أكثر وجوهه ظلمة، يمكن أن يؤدي إلى ميول تدميرية. إن الرحلة القصيرة جدًا التي بدأت بكلمة "قطار" تنتهي عند رقم ستة الذي يربط الكاتبين أكثر من أي شيء آخر، ويُعرّفهما كما لو أن الأمر يتعلق بمرآة.

Telegram:@mbooks90

قبل إنهاء هذه الرحلة على متن القطار، أودُّ أن أقول إنه ربّما كان مسلّيًا أن يلتقي الكاتبان في المحطة، لكن، وفق ما نعرف من سيرتي حياتهما، فمن المحتمل أنهما لم يتعارفا قطّ، رغم أنهما كانا معاصرين بعضهما لبعض.

ولد فرانز كافكا في براغ سنة ١٨٨٣، بينما ولد فرناندو بيسوا في لشبونة سنة ١٨٨٨؛ ومات كلاهما شابّين نسبيًا: توفي فرانز كافكا عن عمر يناهز الواحد والأربعين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سنة، ومات فرناندو بيسوا في سن السابعة والأربعين.

---

(7) ضمن مجموعة إرسالية غريبة، سعد الورزازي للنشر الرباط، ٢٠١٠. (ترجمة سعيد بنعبد الواحد وليلى منصور)

(8) ضمن مجموعة مكان في الحديقة، منشورات دار الخان، الكويت، ٢٠٢٠. (ترجمة سعيد بنعبد الواحد)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جغرافيّاتٌ

من هذه المدينة خرجت جيوشٌ عظيمة، ولما بلغت جغرافياتٍ أخرى اعتُبرت مسالمةً.

- انظري يا ليسا، يا لها من تشكيلة نملٍ غريبة. قالَ ذلك الرّجُل وهو يرى، في تلك الظهيرة من شهر أغسطس، نُخبةَ جيشنا تسيرُ في عرضٍ عسكري، في اصطفافٍ رائع، بمحاذاة السور الذي يحيط بمقبرة سان لوريل، في طريقها إلى المعركة.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كتابة

هذا الظرفُ المحيّر المتمثلُ في عدم التعرف على خطّ يدي الشخصي، دفَعني في كثير من الأحيان إلى التجول في نصوص الآخرين في محاولة لأجد فيها ذلك القُرب الذي يفلتُ مني في نصوصي. ذات سفرٍ إلى اليابان، قُرب مدخل أحد المعابد، رأيتُ شجرةً تتمايلُ فوق أغصانها أوراقٌ مستطيلة صغيرة اعتاد الناس على تعليقها قربانًا عند أبواب الأماكن المقدسة. أذكرُ أنني بقيت أتأمل محدقة في واحدة منها، كنتُ أجهل -طبعًا- معناه، لكن تأملها جعلني أشعر كما لو أن أحدهم يدخل إلى الدفء العائلي بعد أن مشى طويلًا وسط المطر والعاصفة. لم أشعر مرة أخرى بإحساس مماثلٍ من القرب من أي خطّ آخر.

أعيشُ في سفر دائم عبر الآثار المختلفة فوق الورق، الاعتراف بذلك أمر محرج، ولكني أغير الخطّ بسهولة تُربكني، لدرجة أنني، أحيانًا، أجد صعوبة في قراءة ما كتبتُ. بل إنني في مناسبة ما بدأتُ قصة قصيرة بخطّ معين، وأثناء كتابتها، التي لم تستغرق أكثر من ساعتين، غيرتُ الخطّ خمس مرات.

لكن الأغرب هو ما حدث لي مع هذا النص الذي يقرأه القارئ في هذه اللحظة بالذات. أوقفتُه في هذه النقطة بالضبط، كي أذهب إلى مكتب البريد وأستلم طردًا من الكُتب. عندما عدتُ، بعد ذلك بساعة، وجدتُ بدهشة كبيرة أن هناك، في النقطة التي تركته فيها، بدأت حكايةٌ صغيرة يبدو أنها جاءت تطيرُ بينما كنتُ أستلم الرسالة في مكتب البريد. طبعًا، لم أتعرّف الخطّ بأنه خطّ يدي، لكن هذا لا يشكل أي مستجد عندي، وإن لم تكن تلك الفقرات قد كتبت بخطّ يدي. لم يدخل إلى بيتي أيُّ شخص آخر غيري، ولم يلمس أحدٌ ريشتي ولا أوراقي، لكن الكتابة كانت هناك، وتقول ما يلي:

"الموعد في منزل سفير دولة إسميرالدينا، والمناسبة إجراءُ مقابلة معه حول القرار الحكومي بوضع أسود على الحدود كإجراء رادع للأمواج الضخمة من المهاجرين.

في هذه اللحظة يقدم لي السفير كأس الشاي الثالثة، ولا يجيب على أسئلتي، يكرر مرات ومرات مختلف رموز الأسد في الغرب. في صوته نبرة غريبة؛ أنهض، أتذرع بالتزامات، يرافقني إلى الباب، وقبل أن يغلقها، أتمكن من أن أرى التبن الذي يفيض من وراء القناع الورقي، والمُدوّرة الصغيرة في جنبه".

إنّ نصوصي، في نهاية المطاف، تبدو مُزبكة وغريبة، لأن كلّ نوع من الخطّ عادة ما تقابله نبرة مختلفة من الإلهام، من الأسلوب، كما لو أن القصّة أو القصيدة، في حقيقة الأمر، عمل جماعي ينجزهُ عدة أشخاص.

بصفتي كاتبة، يمدُّني هذا الأمر بإمكانية فريدة لاستقصاء دواخلي من خلال هذه التحوُّلات المستمرة، بنفس الطريقة التي قد يتوغّلُ بها مستكشفٌ ما في أرض مجهولة، تعجُّ بالظروف الغريبة في رحلة يجهل نهايتها.

هكذا، تحوّل المجهول في النهاية إلى فضاء عائليّ أشعر أنني غريبة خارجهُ. أن أجلس كلّ يوم لأكتب، بالنسبة لي، فعلٌ كامل من الترحال عبر عوالم بعيدة عن المعتاد؛ كما أنه تمرين على الفضول والتسامح مع لغات أخرى، مع علامات أجهلها وهي تتصارع بداخلي لتعبّر عن نفسها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner